التعليق على كتاب

رَشُّ البَرَدِ

شــــرح

الأَدَبِ المُفْرَدِ

أ.أناهيد بنت عيد السميري

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدّم لكم مدوّنة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ) تفاريغ من دروس الأستاذة الفاضلة

أناهيد بنت عيد السميري حفظها الله

ونسأل الله أن ينفع بها.

https://anaheedblogger.blogspot.com/

تنبيهات هامة:

– منهجنا الكتاب والسّنة على فهم السّلف الصالح.

– هذه التّفاريغ من عمل الطّالبات ولم تطّلع عليها الأستاذة حفظها الله.

– الكمال لله –عزَّ وجلَّ–، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم من خطأ فمن أنفسنا والشّيطان، ونستغفر الله.

والله الموفّق لما يحبّ ويرضى.

الجزء الخامس

اللّقاء السابع والثلاثون

الأحد: ٢٣ رجب ١٤٤٢ هـ

بسم الله الرّحمن الرّحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمد الله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا ونسأله بمنه وكرمه أن يجعلنا من أولئك القوم الذين يسمعون القول فيتبعون أحسنه، وما أحسن كلام نبينا محمد -صلّى الله عليه وسلّم- نبي الرحمة الذي نشر بسنّته الرحمة في أجواء الحياة، والناس في كل زمانهم يحتاجون إلى الرحمة ويحتاجون أن يعلموا أن هذه الرحمة وراؤها الأجور العظيمة، وأن أول المنتفعين بهذه الرحمة هم الراحمون لأن الراحمون يرحمهم الله كما ورد في الحديث عن النبي -صلّى الله عليه وسلّم-.

وها نحن لا زلنا في أحاديث النبي -صلّى الله عليه وسلّم- ولا زلنا في الكلام عن هذه الصفات الكريمة التي يحب الله منا أن نكون أهلًا لها.

نبدأ مستعينين بالله، بعدما انتهينا من الكلام حول أمر الشريعة بحسن الجوار، نبدأ الآن في موضوع آخر تظهر فيه القيم الإسلامية.

٧١- بَابُ الْكَرَمِ

١٢٩- حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ ابن سَلاَمٍ، قَالَ: أَخْبَرَنَا عَبْدَةُ، عَنْ عُبَيْدِ اللهِ، عَنْ سَعِيدِ ابن أَبِي سَعِيدٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللهِ صلّى الله عليه وسلّم: أَيُّ النَّاسِ أَكْرَمُ؟ قَالَ: (أَكْرَمُهُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاهُمْ). قَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ. قَالَ: (فَأَكْرَمُ النَّاسِ: يُوسُفُ نَبِيُّ اللهِ ابْنُ نَبِيِّ اللهِ ابْنِ خَلِيلِ اللهِ). قَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ. قَالَ: (فَعَنْ مَعَادِنِ الْعَرَبِ تَسْأَلُونِي؟). قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: (فَخِيَارُكُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُكُمْ فِي الإِسْلاَمِ إِذَا فَقِهُوا).

شرحُ الكلمات:

- معادن العرب: أي: أصولها، وإنما عبر عن القبائل بالمعادن لما فيها من الاستعداد المتفاوت، أو شبههم بالمعادن لكونهم أوعية للشرف كما أن المعادن أوعية للجواهر الثمينة.
- إذا فقهوا: أي: صاروا فقهاء عالمين بالأحكام الشرعية الفقهية.

فِقهُ الحديث:

١) الصحابة سألوا عن مفهوم الكرم عند النبي -صلّى الله عليه وسلّم- فأفادهم بأنه الجمع بين الشرف والنسب وبين التقوى والعمل الصالح والعلم والفقه في الدين.

٢) إن أصحاب المروءات ومكارم الأخلاق في الجاهلية إذا أسلموا وفقهوا فهم خيار الناس.

٣) أفضل الناس من الصحابة من جمع بين شرف الآباء في الجاهلية وشرف الإيمان والتقوى والفقه في الدين في الإسلام.

كان أصحاب النبي -صلّى الله عليه وسلّم- الكرام، الذين مثلوا الخلق الكاملين، هؤلاء الأصحاب الكرام الذين قال الله عنهم في سورة البقرة واصفًا موقف المنافقين منهم، وممثلًا لحالهم: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ} (الآية: ١٣) إذا قيل للمنافقين نصحًا لهم: آمنوا كما آمن الناس، والناس هم الصحابة، وصف الصحابة في هذا الموقف بأنهم الكاملون في الإنسانية، فإن المؤمنين هم الناس في الحقيقة لكونهم يجمعون ما يعد من خصائص الإنسان وفضائله، فالمنافقين في عصر النبي -صلّى الله عليه وسلّم- قيل لهم: آمنوا كما آمن الناس، كما آمن الأصحاب الكرام، كما آمن الكاملون في الإنسانية، فهم الناس حقًا.

هؤلاء الأصحاب الكرام، الذين هم الناس حقًا، يحرصون على تحصيل أفضل المكارم وأحسن الأخلاق، وكانوا يسألون النبي -صلّى الله عليه وسلّم- عن المتصفين بصفات الكرم، وهنا لا نفهم الكرم فهمًا ضيقًا بحيث أننا نعتقد أنه الإنفاق! الكريم ضد البخيل هذا جزء من المعنى، لكن المعنى أعم من ذلك، فكرام الخلق، وأكرم الناس هم المتصفون بالصفات الكريمة، بمعنى أنهم يحملون قيمًا عُليا يمارسونها في كل حين وتحت أشد الظروف وتحت أحلك المواقف هم يتحلون بصفات الكرم، والكرم هذا إنما أتى من تكريم الله لهم.

الإنسان الكريم هو الإنسان الذي يمارس القِيم العُليا التي بها تحصل الكرامة، {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ} (الإسراء: ٧٠)؛ لذلك لما سأله الأصحاب الكرام النبي -صلّى الله عليه وسلّم- وكانوا يبحثون عن الكرم، قالوا: (أَيُّ النَّاسِ أَكْرَمُ؟) الكلمة التي تحمل المعنى الأشمل، وهي بمعنى أي الخلق أكثر صفات كمال؟ فسألوا النبي -صلّى الله عليه وسلّم- عن المتصفين بهذه الصفات من أجل أن يسلكوا مسلكهم ويعرفوا قدرهم، وهنا النبي -صلّى الله عليه وسلّم- بادرهم بالإجابة التي يجب أن تكون واضحة في أذهانهم، ونلحظ أنه في الحديث ثلاث إجابات، فامتلأ النص بالخيرات، وبإشارات لمعنى الكرم.

لما سأل الصحابة -رضوان الله عليهم- النبي -صلّى الله عليه وسلّم- عن أكرم الناس، بادرهم النبي -صلّى الله عليه وسلّم- بالمعنى العام الذي يشمل الناس كلهم والذي يتفاوت الناس فيه وهو التقوى، إشارة إلى الآية التي في سورة الحجرات {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ} (الآية: ١٣) هذا -المعنى الأول- وهو من معاني الكرم العظيمة، معنى ذلك أن الناس يتفاوتون على حسب تقواهم، ومن ثم هنا نفكر في أكرم الناس عند الله، من أعلاهم منزلة بعدما كرم الله بني آدم جميعًا؟

في الأصل لا بد أن نعلم أن الله كرّم جميع الخلق في كونهم من ذرية آدم، وفي كونهم مرفوعين عن غيرهم من الخلق وهذا هو المعنى الأول في الإكرام، وهو ما ورد في سورة الإسراء، وهو تكريم الله -عزّ وجلّ- لبني آدم على سائر المخلوقات، وهذا التكريم من الأشياء العجيبة التي لا ينكرها إلا سفيهًا، ولا يضيّع هذه الكرامة إلا من سفه نفسه، فهذه الكرامة تظهر في أمور غاية في الوضوح، منة التكريم ميزة خصّ الله بها بني آدم من بين سائر المخلوقات الأرضية وهي تامة الوضوح، جعله الله كريمًا؛ نفيسًا غير مبتذل ولا ذليل في صورته ولا حركة مشيته ولا في بشرته، إنما كرّمه الله، وهذا التكريم رفعه عن جميع البهائم التي لا تعرف النظافة ولا اللباس ولا رفاهية المضجع والمأكل ولا يحسنون آداب الطعام ولا الشراب، وليسوا مستعدين للبحث فيما ينفعهم وما يدفع الضر عنهم، فلا يشعرون بكريم الأخلاق فيبذلون جهدهم لأجل أن يصلوا إليها، ولا يعرفون محاسن الأخلاق ليمارسوها ولا قبائح الأحوال ليستروها ويدفعوها.

فالناس في أصلهم مكرمين؛ ولذلك ابن عباس لما أراد أن يصف تكريم الله للإنسان قال: (إنه يأكل بأصابعه فلا ينتهش الطعام بفمه) فهذا دليل على رفعة الإنسان.

بهذا يكون الإنسان كجنس الإنسان في الأصل مكرم، لكن مَن مِن هؤلاء بعد ذلك أكرم نفسه، أصبح عنصرًا نفيسًا حقًا ..؟

أخبرنا الله -عزّ وجلّ- بذلك، فمثلًا في سورة الحج أخبرنا -سبحانه وتعالى- عن الساجدين من الناس، ومن يقابلهم فقال -عزّ وجلّ-: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الارْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ} (الآية: ١٨) وعدد -سبحانه وتعالى- الساجدين، إلى أن أخبرنا: {وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ} يعني: ممن كُرِموا بالسجود، أكرموا أنفسهم بأن سجدوا لرب العالمين: {وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ} إذا أهان الإنسان نفسه ولم يجعل نفسه جوهرًا نفيسًا بالسجود لله وبطاعة الله والامتثال لأمره، إذًا سيهين نفسه بطاعة الهوى والشيطان.

لذا نتصور المؤمن الذي أتى خبره في سورة يس، هذا الرجل العجيب الذي بقي يدعو إلى الله حتى بعد موته من نفاسة معدنه، دعا قومه مع الأنبياء الذين أُرسلوا لهذه القرية، ولما لم يؤمن قومه صار هو ينصحهم ويقول لهم: {اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ * وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} (الآية: ٢١-٢٢) إلى أن أعلنها مدوية: {إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ} (الآية: ٢٥) أظهر الإيمان، يظهر من السياق أنهم قتلوه نتيجة إيمانه؛ لأن السياق فيه حذف، مباشرة قال: {قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ} ثوابًا على صدق إيمانك، وبعدما قُتل وأصبح في الدار الآخرة: {قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ} (الآية: ٢٦) لا زال يتمنى بعد الموت أن ينتفع قومه ويعلمون: {بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ} (الآية: ٢٧).

هنا تظهر الكرامة الحقيقية، كيف أن الله كرّم بني آدم وهم المفروض أنهم يكرمون أنفسهم بالإيمان لأن الله يكرم هؤلاء الذين آمنوا وثبتوا على الإيمان، هذه هي الكرامة الحقيقية للإنسان، هذا هو الكرم، بهذا تصبح جوهرًا كريمًا، حين تؤمن وتثبت على الإيمان تصبح جوهرًا نفيسًا كالأحجار الكريمة.

فكان هذا المؤمن من الشهداء، وقيل له جزاء لفعله: ادخل الجنة وتمتّع بها. فتمنى أن يعلم قومه ماذا لقي من ربه ليعلموا فضيلة الإيمان، ويعلموا كيف يوصل الإنسان نفسه أن يكون مكرّمًا، فهذا الرجل العجيب في سورة يس مثالًا للرجل الذي يكون متّسمًا بكظم الغيظ وبالحلم على أهل الجهل، فكان في حالة تمني أن يعلموا ما هي حال الكرامة التي تأتي من الله، كيف أن الإنسان حين يكرم نفسه بالإيمان في الدنيا تلحقه كرامة الله تعالى، فيكون مع الملائكة والأنبياء وأفضل الصالحين، هكذا يكون الإنسان كريمًا، وربنا هو الكريم -سبحانه وتعالى- الذي أكرم الخلق بالأنبياء وبالرسل.

هكذا فهمنا أن الكرامة إنما هي على الحقيقة بالتقوى كما في آية سورة الحجرات، نقف أمام آية سورة الحجرات ونرى كيف أن الآية العظيمة تثبت أمرين:

أولًا: أن الخلق كلهم يعودون إلى آدم -عليه السلام- وحواء: {إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ} وهذا يتبعه أن نفهم أن الناس لا يُمكن إلا أن يكونوا ذكرًا أو أنثى، أما ما نسمعه من غُثاء أهل الكفر والفسق والذين أقل ما يقال عنهم إنهم معتوهين قد أصابهم الخَبَل في عقولهم فيجعلون غير فطرة الله، غير الذكر والأنثى، فهذا من الغُثاء الذي لا تعتبر به أبدًا ولا تهتم به، فقد أخبر -سبحانه وتعالى- أنه خلق الخلق من ذكر وأنثى وبينهم من الفروق ما الله به عليم، أما إلغاء الفروق الكونية والقدرية والشرعية بين الذكر والأنثى فهذا باطل ولا يمكن أن يكون، فقد صح عن النبي -صلّى الله عليه وسلّم- أنه لعن المتشبه من النوعين بالآخر: (لَعنَ اللهُ المتشبهينَ من الرجالِ بالنساءِ والمتشبهاتِ من النساءِ بالرجال)[1]؛ لأن المتشبه أراد أن يحطم الفوارق التي لا يمكن أن

(١) أخرجه البخاري (٥٨٨٥)

تتحطم، لو كانت الفوارق بين الذكر والأنثى يمكن تحطيمها وإزالتها لما كان هناك لعن، هذه فوارق كونية وقدرية عظيمة بين الذكر والأنثى وبعد ذلك ترتّب عليها أحكام شرعية، وهذا أمر متفق عليه، ونؤكد عليه لأجل الغثاء الذي يحيط بنا الآن، ونحن لا نلتفت لهذا الغثاء فالحق واضح كالشمس وأهل الباطل يريدون أن يغطوا عين الشمس الواضحة بغربال، خابوا وخسروا!

كل العقلاء مطبقون على الاعتراف بذلك، ولا حاجة لمناقشة هذا الأمر.

هذا هو الجزء الأول من الآية: {إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا} (الآية: ١٣) لا يمكن إلغاء الفوارق بين الذكر والأنثى وهذا يدل على استواء الناس في الأصل لأن أبوهم وأمهم واحدة، وهذا يمنعنا من التفاخر بالأنساب والتطاول على بعض، ثم جعلنا شعوبًا وقبائل لأجل أن نتعارف، يعرف بعضنا بعضًا لنتمايز لا لأجل أن نتفاخر ونتطاول على بعضنا البعض -والعياذ بالله-.

وهذا يدل على أن بعض الناس يكون أفضل من بعض وأكرم منه بسبب شرعي وبسبب كوني، الآية تكلمت عن السبب الشرعي، يكون هناك تفاضل بسبب كوني وبسبب شرعي.

والسبب الشرعي: {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ} الجزء الأول من الآية يقول: نحن كلنا نجتمع على أم وأب متفقين عليهم مستوين فيهم في الأصل، ثم حصل أن هناك شعوبًا وقبائل، هذا بمثابة النظام للحياة ثم ظهر التفاضل المبني على تقوى الله ولا غير ذلك.

وقد ذكر أن سلمان -رضي الله عنه- كان يقول:

أبي الإسلام لا أب لي سواه إذا افتخروا بقيسٍ أو تميمِ

فهذا الدين دين سماوي صحيح لا نظر فيه إلى الألوان ولا إلى العناصر ولا إلى الجهات، إنما المعتبر فيه تقوى الله -جل وعلا- وطاعته، فأكرم الناس وأفضلهم أتقاهم لله ولا كرم ولا فضل لغير المتقين ولو كان رفيع النسب.

لا مانع من التغاير بيننا فنحن مختلفون من جهة كوننا شعوبًا وقبائل لكن ميزان الكرامة هو التقوى، فهذه التقسيمات، التي هي الشعوب والقبائل نوع تنظيم بديع لو فكرت فيه لعرفت أن الله أراد بالناس الخير وأراد لهم الانتساب لأجل الورث والعلاقات والأرحام والمسؤوليات التي تكون عليهم والحساب الذي سيكون عليهم.

نكون بهذا قد عرفنا معنى مجمل للجواب الأول من كلام النبي -صلّى الله عليه وسلّم- وهو أن الناس وإن اختلفوا شعوبًا وقبائل لكن أكرمهم عند الله أشدهم تقوى وخشية لله وذلك بأداء الفرائض واجتناب المعاصي، ليس أكرمهم عند الله أعظمهم بيتًا ولا أكثرهم عشيرة.

لذلك نلحظ أن هذه الآية الكريمة في سورة الحجرات انتهت بقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} بظواهركم وبباطنكم، بالأتقى والأكرم، لا تخفى عليه خافية -سبحانه وتعالى-.

الحمد لله على هذا الدين وعلى هذا الشرع، الحمد لله الذي أكرمنا بأن جعل لنا ميزانًا دقيقًا نقيس به صلاحنا؛ قربنا وبعدنا عن الكرامة.

نسأل الله -عزّ وجلّ- الذي كرّمنا بأن يكون ديننا هو دين الإسلام أن يتمم علينا نعمائه ويكرّمنا بالتقوى، اللهم ألهمنا التقوى واشرح صدورنا للتقوى واجعل في قلوبنا ميزان أدق من ميزان الذهب لهذه التقوى، اللهم آمين.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

اللّقاء الثامن والثلاثون

الثلاثاء: ٢٥ رجب ١٤٤٢ هـ

بسم الله الرّحمن الرّحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

بسم الله توكلنا على الله، لا حول ولا قوة إلا بالله. لا زلنا نتدارس سويًا ما يتيسر لنا في هذا الكتاب المهم جدًا، كتاب: (الادَب المُفرَد) للبخاري -رحمه الله-، وشرح وتعليق الشيخ الدكتور: محمد السلفي -رحمه الله-؛ المسمى: (رَشُ البَرَد؛ شَرَح الادَب المُفرَد).

وهذا الكتاب مهم لما فيه من إرشاد ووعظ للنفوس لتسلك وتستقيم على طريق النبي الكريم -صلّى الله عليه وسلّم- ولتعلم كم لهذه الشريعة من محاسن عظيمة ترشد إلى الرحمة، وهذه الرحمة هي التي تفقد في الزمن الذي تكون فيه المادية المتوحشة التي تجعل الإنسان لا يفكر إلا في نفسه! نحن في هذا الوقت في أمسّ الحاجة أن نعيد على أسماعنا أحاديث النبي -صلّى الله عليه وسلّم- لنجعل قيمة الرحمة العظيمة، وما يلحقها من قيم حاضرة في أذهاننا ومتواجدة في وجداننا ولها أثر في سلوكنا، وكل هذا ونحن نرجو من الله أن يرزقنا الإخلاص، كل هذا ونحن لا نريد إلا الله والدار الآخرة، لا نريد ثناءً من الخلق ولا شكورًا، نسأل الله أن يرزقنا جميعًا الإخلاص في العلم وطلبه، والإخلاص في العمل والامتثال والانقياد، وأن تكون زيادة المعرفة التي تتحصل لنا زيادة ثقة ويقين في شرع رب العالمين، حتى نلقى ربنا ونحن في غاية من الطمأنينة، فنصلح أن نكون ممن ينادى فيقال له: {يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ} (الفجر: ٢٧) فزيادة العلم بما في هذا الإسلام من سماحة، زيادة للطمأنينة واليقين والثقة، ودفع لموجات التشكيك في هذه الشريعة السمحة، ودفع لموجات الاستهزاء بهذا الدين العظيم. فنحمد الله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا، ونسأله أن ينفعنا بهذا الذي نتعلمه -اللهم آمين-.

نبدأ اليوم إن شاء الله في إكمال دراسة (بَابُ الْكَرَمِ) ونسمع من جديد الحديث ونكمل نقاشه:

٧١- بَابُ الْكَرَمِ

١٢٩- حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ ابن سَلاَمٍ، قَالَ: أَخْبَرَنَا عَبْدَةُ، عَنْ عُبَيْدِ اللهِ، عَنْ سَعِيدِ ابن أَبِي سَعِيدٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللهِ صلّى الله عليه وسلّم: أَيُّ النَّاسِ أَكْرَمُ؟ قَالَ: (أَكْرَمُهُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاهُمْ). قَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ. قَالَ: (فَأَكْرَمُ النَّاسِ: يُوسُفُ نَبِيُّ اللهِ ابْنُ نَبِيِّ اللهِ ابْنِ خَلِيلِ اللهِ). قَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ. قَالَ: (فَعَنْ مَعَادِنِ الْعَرَبِ تَسْأَلُونِي؟). قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: (فَخِيَارُكُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُكُمْ فِي الإِسْلاَمِ إِذَا فَقِهُوا).

مر معنا أن الأصحاب الكرام -رضي الله عنهم- في حال من الاهتمام بكل ما يوصلهم إلى الكمال، وهذا شأن يجب أن يكون على بالنا دائمًا؛ أن نهتم بما يوصلنا إلى كمال الأحوال.

هم سألوا النبي -صلّى الله عليه وسلّم-: من أكرم الناس؟ وهذا السؤال، كما هو متصور، يحتمل إجابات كثيرة، فيمكن أن يكون الكريم بمعنى: الباذل، الجواد، السخي. ويمكن أن يكون بمعنى: شرف النسب. أو يكون المراد: الإنسان النبيل، يقال: فلان من كِرام الناس، شهم وكذا من الصفات.

نستطيع أن نقول: فلان من كِرام الناس، يمكن أن يكون المعنى من أكرمهم معدنًا من جهة نسبه، ويمكن أن يكون هذا من أفضل الناس في الجود أو أن صفاته صفات كمال.

علينا أن نعرف أن الصحابة الكرام ما سألوا عن ذلك إلا اهتمامًا بأن يحصل لهم الارتقاء، وتحصيل المراتب العالية، ومعرفة من يناسبون، وبمن يرتبطون، وبمن يصاحبون، فكانت مهمتهم منصرفة إلى هذه المعاني، ما كانت همتهم مَن أشهر الناس! ومَن أغنى الناس! وإنما كانوا يريدون الارتقاء القيمي لا الارتواء الغريزي، يبحثون عن الأمور التي بها يحصل النبل.

فبين لهم النبي -صلّى الله عليه وسلّم- في هذا الحديث أنواعًا من الكرم، أما أعظمه، وهو الجواب الأعمّ والأهمّ والذي يعتني به الشرع، فقد قال لهم رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- إن: (أَكْرَمُهُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاهُمْ) كما مر معنا في آية الحجرات، هذه حقيقة عامة مطلقة لا شيء يغيرها؛ عند الله أكرم الخلق أتقى الخلق، ومن ثم ستكون هذه المسألة نسبية؛ كلما كان الإنسان محققًا للتقوى، كلما كان كاملًا وكلما ارتفع عند الله، وكلما تحقق له وصف التقوى أكثر، كلما تحقق له وصف الكرم أكثر عند الله، فكرّمه رب العالمين.

الله كرم بني آدم جميعًا وهناك من حافظ على هذا التكريم، بل وزاد هذا التكريم بالتقوى، إذًا بني آدم مكرمين: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ} -كما مر معنا- لكن هؤلاء حافظوا على كرامتهم الإنسانية وارتفعوا بها، وهناك أناس لم يحافظوا على كرامتهم الإنسانية فهبطوا، فأصبحوا أقل درجة من البهائم، أصبحوا كالأنعام، بل هم أضل.

معنى هذا: أن هذه حقيقة مطلقة لا استثناءات فيها؛ أنت من بني آدم إذًا أنت مكرم، ما عندك إلا حالتين:

- إما أن تزداد كرامة.
- وإما أن تكون ممن أهان نفسه.

{وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ}، إذا أهان الإنسان نفسه بالمعاصي فقد هان على الله، وقد أهانه الله، فلا تفكر أبدًا أن هناك من يكرمه ويرفعه بل سيزداد سفولًا باطنًا وظاهرًا إذا لم يتب ولم يرجع ولم يفتح عينيه على ما هو واجب عليه.

النبي -صلّى الله عليه وسلّم- أجابهم بالجواب المتبادر الذي يليق بهذا المعنى، فهم -رضي الله عنهم- لا يستحون من الحق، ويريدون الزيادة في العلم، فقالوا للرسول -صلّى الله عليه وسلّم-: (لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ)، بمعنى أنه ما أعظم هذه الصفة، صفة التقوى وهي صفة معلومة، وهي سبب الكرامة الحقيقية عند الله، هذه صفة هم عاشوها معايشة، ولم يعرفوها نظريًا فقط، فها هم يعايشون بلالًا وصهيبًا وسلمانًا، ويعرفون أن أكرمهم عند الله، وأن الذي رفعهم هو تقواهم، فهذا المعنى يعيشونه.

فقالوا: ليس عن هذا سألناك، فذكر لهم جوابًا آخرًا فيه ما فيه من الإخبار عن اصطفاء الله لبعض خلقه وعن مكانة الأنبياء التي يجب أن تكون في قلوبنا، فقال لهم إن أكرم الناس نسبًا هو: (يُوسُفُ نَبِيُّ اللهِ ابْنُ نَبِيِّ اللهِ ابْنِ خَلِيلِ اللهِ) يوسف ابن يعقوب ابن إسحاق ابن إبراهيم، آباؤه أنبياء وجده الذي يعتبر والدًا له هو جده خليل الرحمن أبو الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- وكل الأنبياء من بعده جاؤوا من نسل إبراهيم -عليه السلام- ومن هؤلاء النبي -عليه الصلاة والسلام- وهو أشرفهم من ولد إسماعيل ابن إبراهيم -عليهم السلام- فالنبي يقول من يكون له مثل هذا النسب! فيوسف له نسب عالٍ وله أيضًا النبوة، والعلم بالتأويل والرؤى، فهذا من أكرم الناس نسبًا، نبي ابن نبي ابن نبي ابن نبي.

فعادوا وقالوا: (لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ)، وإن كانوا يسألونه عن شيء فيه شيء من النسب، لكنهم يريدون النسب الذي يخالطهم هم؛ لأن نسب يوسف -عليه السلام- نسب منقطع من جهتهم، وإنما هو في بني إسرائيل، ثم أن الذي ميّزه النبوة وهو أمر لا يمكن تحصيله وهم يفكرون في شيء يمكن تحصيله.

لو عرفنا أن هذا البيت، مثلًا من معادن الناس -كما سيتبين- من أكرمهم فنزوج أولادنا منه، نأخذ من عندهم النساء، أو إذا تقدموا لنا قبلناهم بسبب أننا نبحث عن أكرم الناس، إذا ناسبناهم وجدنا في نسبهم آثار هذا الكرم، وهذا الأمر لا يمكن أن يخفى -سبحان الله- من فيه نسب كريم لا يخفى نسبه.

قال النبي -صلّى الله عليه وسلّم-: (فَعَنْ مَعَادِنِ الْعَرَبِ تَسْأَلُونِي؟) وهذا يدل على معرفته -صلّى الله عليه وسلّم- بوجوه السؤال ومعرفته بمعادن الناس، فهو يعرف كرم النسب كما يعرف كرم التقوى، لكن أراد -صلّى الله عليه وسلّم- أن يبين لهم أن الكرم الحقيقي والفضل الحقيقي، والرفعة الحقيقية إنما هي بالتقوى، كرم النفوس تقواها، النفوس التي تستطيع أن تتقي وتنزه نفسها وتطهرها وتبعدها عن المعائب وتراجعها ولا

تنطلق في هواها من أكرم وأطيب وأجود النفوس، من له بنفس مثل هذه النفس، وهذا هو المقصود، أن هذه النفوس من أكرم النفوس لأنها تستطيع أن تغلب نفسها بالتقوى ولا تجري وراء هواها، ولا تقول: لا أستطيع التوقف عن كذا من الأمور، إنما تزداد تقوى وتزداد ضبطًا لنفسها وكلما زاد الضبط كلما زاد منها الصبر، فهذه النفوس التقية.

وكذلك كرم نسب يوسف -عليه السلام- من الكرم، وأيضًا معادن الناس من الكرم، هذا ملخص الكرم، فتبين له أنهم يسألونه عن الثالثة.

هذه قضية يريدون أن يعرفوا فيها، وهم الذين نجاهم الله من الجاهلية وشرفهم بالإسلام، كانوا هم أهل كرم، بمعنى أهل قيم، والكرم هنا بمعنى القيم، (معادن العرب) بمعنى كان أقوام في العرب معروفة بالشجاعة، وأقوام معروفة بالجود، وأقوام معروفة بالرأي والبصيرة وتجربة الأمور؛ أي: الحكمة، وأقوام معروفة بالإصلاح بين الناس وكراهية الإفساد، فكل عُرف بشأن، كل عرف بصفة كمال، قيمة من القيم كانوا هم أهلها، وبعد ما أُنعِم عليهم بالإسلام يريدون أن يعرفوا ما الموقف من هذه الأمور التي في نفوسهم جليلة وعظيمة -وهي كذلك- ومخطئ من يظن أن الإسلام أتى فلم يجعلها جليلة وعظيمة، فطمأنهم الرسول -صلّى الله عليه وسلّم- وبيّن لهم، هم يحبون أن يكون الإنسان صاحب شيم ونخوة وشهامة وجود وكرم، شجاع، في طبيعة العرب هذا عندهم أهم من أي شيء؛ أهم من المال وأهم من كثرة العيال أن يكون الإنسان موصوف بصفات كمال إنسانية يعرف بها.

وهذا الشيء كان مهمًا جدًا عند العرب -وسبحان الله- الله وضع رسالته في هؤلاء لأنهم يهمهم معالي الأمور، يهمهم ماذا يحمل الإنسان بين جنبيه، ويهمهم أن يكونوا أصحاب همة وسمو، يترفّعوا بأعمالهم، يتركوا الدنايا، يتركوا وراءهم شيمًا حسنة، يعرفوا بالكرم والشجاعة والشهامة، يعرفوا أنهم يطعمون المحتاج وأنهم أصحاب إصلاح، هذا ما كان يهمهم؛ لذا أتى سؤالهم للنبي -صلّى الله عليه وسلّم-: هل ما كنا نظنه ونعتقده باطل؟ هل هذه الصفات الحسنة ليس لها قيمة في الإسلام؟ قد كنا نحمل نفسنا على أعلى المراتب ونكره أن نتدنى، ونكره أن ندور حول شهوتنا ونكره أن تسقط منزلتنا.

أبو بكر -رضي الله عنه- مشهور بهذه الأمور، وعثمان -رضي الله عنه- عرف من الجاهلية بحيائه الذي ألزمه ألا يشرب الخمر، وألا يزني وألا يسجد لصنم، الحياء ألزمه بهذه التصرفات، فنبّه النبي -صلّى الله عليه وسلّم- إلى هذا الأمر قال: (فَخِيَارُكُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُكُمْ فِي الإِسْلامِ إِذَا فَقِهُوا) المعنى: أن الإنسان إذا كان صاحب طباع حسنة، خُلق عليها ووهبت له.

مثل لما أتى أشج ابن عبد قيس في وفد، أتى وفد عبد قيس للمدينة ودخلوا عليها وسألوا عن النبي -صلّى الله عليه وسلّم- فقيل لهم: هذا الرجل الجالس في صدر المجلس، أشير إلى النبي -صلّى الله عليه وسلّم- وكانوا آتين بقافلتهم ورحالهم يرون من في المسجد، فعرفوا النبي -صلّى الله عليه وسلّم- بعد أن أشير إليه، فتركوا رحالهم على حالها وأقبلوا على النبي -صلّى الله عليه وسلّم- -كما في رواية النسائي- يقبّلون رأسه ويده الشريفة، وحق لهم أن يتركوا كل شيء عند رؤية النبي -صلّى الله عليه وسلّم- يا لشوق النفوس لرؤيته! لكن بقي منهم واحد وهو أشج والنبي -صلّى الله عليه وسلّم- يرقبه، رتب رحله ورتب نفسه ودخل قبّل يد النبي -صلّى الله عليه وسلّم- ورأسه، وهو ليس كبير في قومه، قال له النبي -صلّى الله عليه وسلّم-: (إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ: الْحِلْمُ، وَالاَنَاةُ) فانتهز الفرصة أشج مباشرة وقال للنبي -صلّى الله عليه وسلّم-: (جَبْلًا جُبِلْتُ عَلَيْهِ أَوْ خُلُقًا مِنِّي؟)، يعني هل اجتهدت ووصلت أن أكون حليمًا، أم هذا أصلًا طبع بي ربنا جبلني عليه؟ قال له النبي -صلّى الله عليه وسلّم-: (بَلْ جَبْلًا جُبِلْتَ عَلَيْهِ) قال: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَبَلَنِي عَلَى خُلُقَيْنِ أَحَبَّهُمَا اللَّهُ عز وجل)[1].

هُناك طباع ومعادن للخلق يهبها الله لهم، إذا فقهوا وتعلموا لانتهوا لها التفتوا إليها، وهذا الحديث يحتاج إلى وقفات طويلة لأجل أن نفهم أن المطلوب منا أن نربي أبناءنا على معالي الأمور. لكن لأن الدراسة إجمالية وسريعة ففي نهاية هذا النقاش نوصي بثلاثة أمور لأجل أن تتضح هذه الصورة، وإن شاء الله حين نكمل فقه الحديث نزيد ما يتيسر.

- الأمر الأول:

يجب أن ننبه أبناءنا بعد ملاحظة طباعهم الجبلية على ما أكرمهم الله من طباع حسنة.

نفترض أن عندنا ولد قريب البلوغ منّ الله عليه أنه هادئ ورزين، وكل التعبيرات التي فيها مديح، فنقول بكلام حقيقي لا مجاملة سواءً كان وحده أو في مجلس: ما شاء الله ميّز ربنا فلان بهذا الطبع الذي يساعده على كذا وكذا.

مثلًا.. يكون الشاب حيي فلا تقل كيف نعالجهم من الحياء؟ وهؤلاء منطويين، علينا أن نميز بين الانطواء الذي هو من الاكتئاب والمشاكل وبين الحياء الذي يجعلهم أقل كلامًا وأقل تدخلًا في الأمور وأقل تعليقًا، ننبهه على ما أعطي أولًا.

(١) صححه الألباني.

- الأمر الثاني:

أن ننبههم أن هذه المنّة تستلزم منّا المحافظة عليها، والانتقاع بها، وأن الله يحب الحياء وأن يكون الإنسان رزينا، في الصفات التي نعرف أنها كمال.

مثلًا.. في مدارس فيها رياض أطفال وابتدائي في بداية المدرسة كانت الصغيرة في رياض الأطفال تبكي لذهاب أمها، والكبيرة تسمع صوت أختها تبكي، فتستأذن من المعلمة وتذهب إلى دورة المياة تبكي على أختها، فعرفوا أنها تبكي، فيمكن أن يكون هناك هجوم عليها! أو أن توفق لها معلمة مباركة فتقول لها: إحساسك بأختك نعمة عظيمة، وهكذا يجب أن يكون الإخوان، لكن لا تقلقي تتحسن بعد أن تتعود على المدرسة.

نحتاج من يستطيع أن يتصور أين صفات الكمال ويوجهها وينفع بها ويقول لها هذه الصفة التي فيك غدًا ستجعلك سببًا لاجتماع إخوتك على الطاعات، فننبه على الصفة وندعو إلى الانتفاع بها فيما ينفع في ديننا.

- الأمر الثالث:

الذي ننبه عليه، وهذا دائمًا يكون من دور الوالدين؛ إذا تنبهنا لصفات الكمال ومدحناها وأثنينا عليها، نحتاج أن نجعل هذه الصفات مفتاح لمنع هذا الإنسان من السفول، أو نجعل هذه الصفة سببًا لتربيته على معالي الأمور؛ لأن الإنسان ضعيف، لكن نقول له: أنت ربنا أعطاك صفات فانتفع بها ولا تُضِع نفسك، ومن عنده هذه الصفة يجب أن يطلب دائمًا أن يكون في معالي الأمور، تكون مفتاحًا لمنعه من السفول ولتربيته على معالي الأمور.

هذا موضوع ضخم وكبير ومهم، في العُجالة لا نستطيع أن نعطيه حقه، لكن إن شاء الله هذه تكون إضاءات ويوم الأحد القادم إن شاء الله نكمل فقه هذا الحديث.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

اللّقاء التاسع والثلاثون

الأحد: ٣٠رجب ١٤٤٢ هـ

بسم الله الرّحمن الرّحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمد الله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا ونسأله بمنه وكرمه أن يتفضل علينا بانشراح الصدر وتيسير الأمر والثبات على هذا الدين العظيم، الدين الذي أهم قيمه وأعظمها: الرحمة، فقد أرسل الله رسوله رحمة للعالمين، ومن سار على طريق هذا الرسول الكريم كان من الراحمين.

فاللهم ارحمنا رحمة تغنينا عن رحمة من سواك، واجعلنا في الدنيا من أهل الفقه والعلم، وفي الآخرة من أهل الدرجات العلا -اللهم آمين-.

كنا، ولا زلنا، بفضل الله نتدارس هذا الباب العظيم من أبواب العلم، باب أحاديث الرسول الكريم، باب عظيم من أبواب العلم، على الناس كافة من أهل الإسلام أن يعتنوا به وعلى المربين خاصة أن يكون أمام عينيهم وعلى طلبة العلم أن ينشروا أحاديث رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- ويبثوها بين الخلق؛ لأننا أمرنا بأن كل ما آتانا الرسول نأخذه وكل ما نهانا عنه الرسول ننتهي عنه، فمن هذا الباب لا بد من جعل أحاديث الرسول -صلّى الله عليه وسلّم- أمام عينينا في الاهتمام والعناية والنشر، والوصية هنا خاصة للمربيات الفاضلات اللاتي هنّ على ثغرة في بيوتهنّ وفي الأماكن التي تخصصت في التربية وفي توجيه المربين والمربيات.

لا بد أن نعلم أن الكمال فيما جاء من عند الله ومن عند رسوله -صلّى الله عليه وسلّم- وأن من أراد حسن التربية فليهتم بكتاب مثل: (الادَب المُفرَد) فإنه قد عُقدت أبوابه على أن يتدرج الإنسان في مدارج الكمال وأن يتعلم الحقوق والواجبات، وأن يترقى في رضا رب العباد -سبحانه وتعالى-، فليكن هذا على بالنا، ونحتسب هذا الأمر قربى إلى الله، ولننتظر جميعًا أن نأتي يوم القيامة فنجده نورًا لنا ونجده كالجبال العظام في موازيننا.

اللهم تقبل منا جميعًا حرصنا على معرفة هدي رسولنا الكريم وسعينا إلى نشره في العالمين -اللهم آمين-.

قد كنا بلغنا باب مهم جدًا وهو: (بَابُ الْكَرَمِ) وعلّمنا رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- مفاهيم عظيمة وجمعها -صلّى الله عليه وسلّم- في إجابته على الصحابة الكرام، فعرفنا أن الله الذي كرّم الخلائق، كرّم بني آدم، كرّم هذا الإنسان بإنسانيته قد جعل له فرصة عظيمة بعد هذا التكريم أن يكون أرفع وأكرم عنده، قد جعل له فرصة ثمينة أن يكون كريمًا، جوهرًا نفيسًا مختلفًا عن غيره، كيف يكون الإنسان كريمًا على الله؟ كيف يكون للإنسان صيت في السماء؟ إنه لأمر يسير على من يسّره الله عليه، فلتكن من الأتقياء، وأكرم الخلق عند الله أتقى الخلق لله.

فكل هذه العملية التي تحصل في داخلك فتفكر وتعرض الأمور على نفسك وتقول: أخشى أن يكون هذا أمر لا يرضي الله أو أمر فيه حرج، أخشى أن يشغلني هذا عن الله، أو لو أني أخذت هذا المال أن أقع في شبهة، وأخشى أي طريق يبعدني عن الله، هذا الذي يدور في الفؤاد ثم يخرج منه سلوك وامتناع عن الخطأ واقتراب من الصواب، وكل مرة يجد الإنسان في نفسه أنه يعالج داءً في قلبه ويمارس قيمة من قيم الإسلام العليا إنها التقوى، كل مرة يصبح هذا الإنسان أكرم عند الله وأكثر نفاسة وأعظم مكانة.

ومثل هؤلاء الكرام عند الله لا تسأل كيف يطيّب الله لهم الحياة، ولا تسأل كيف أن حملة العرش الكرام العظام يستغفرون لهم، لا تسأل عن ذكرهم في السماء، وعن حب رب الأرض والسماء لهم، وحب جبريل لهم، وحب ملائكة السماء لهم، فإن الكرامة عند الله لا يساويها شيء في الدنيا، ومن حظوظ الدنيا.

ألم يقل رب العالمين: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ} وعد لنا هذه الشهوات ثم قال لنا في الآية التالية: {قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ} من {الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالانْعَامِ وَالْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ} (آل عمران: ١٤) {قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ} ما هو الخير من ذلكم؟ ما هو الخير من {النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالانْعَامِ وَالْحَرْثِ} ماذا يكون خير من ذلك؟

أولًا يجب أن نعرف لمن خير من ذلك؟ للذين اتقوا، وعند خير من ذلك؟ عند ربهم وليس عند أهل الدنيا: {قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الانْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ} (آل عمران: ١٥) هؤلاء أكرم الخلق وهذا التنبيه من الرسول الكريم للصحابة الكرام الذين سألوه عن أكرم الناس، نبههم أن هذا هو المعنى المطلق للكرم، فلما قالوا: (لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ) أخبرهم بالنسب الشريف ليوسف -عليه السلام- حتى ينتهي عند خليل الرحمن إبراهيم -عليه السلام، فلما قالوا له: (لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ)، وهم لا زالوا ينتفعون ويستزيدون قال لهم: (فَعَنْ مَعَادِنِ الْعَرَبِ تَسْأَلُونِي؟).

هذا كان مقصد هؤلاء الكرام لأجل أن يتنافسوا في هذا الباب، فقال لهم الرسول الكريم: (فَخِيَارُكُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُكُمْ فِي الإِسْلامِ إِذَا فَقِهُوا) وقد مر معنا -في اللّقاء السابق- الكلام عن معادن الناس وكيف أن هذا الأمر لا يهمل أبدًا، ويُعلم كم أنعم الله -عزّ وجلّ- على الناس من أن جعل لهم معادن، فيتشبه بهم الناس لكن هذه المعادن، من قد جُبل على الكرم وجبل على الفطنة، كما قال النبي -صلّى الله عليه وسلّم- للأشج ابن عبد قيس: (إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ: الْحِلْمُ، وَالاَنَاةُ) الذي رُزق أن يكون حليمًا متأنيًا هادئًا، الذي رزق أن

يكون كريمًا، الذي رزق أن يكون معتنيًا بشؤون الخلق خارجًا عن أنانيته، هذا معدن شريف، إذا تعلم لا بد أن يكون أثر التعلم الخيرات والبركات؛ لذلك (فَخِيَارُكُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُكُمْ فِي الإِسْلامِ) فهذه المعادن لها أثرها.

لكن هنا أمر مهم وهو الفقه والتعلم لأن الفقه والتعلم يسببان للمرء الانتفاع من صفاته، يسببان للمرء استثمار هذه الصفات فيما يحب الله ويرضى.

نفكر مثلًا.. في أكرم الناس على الله وهو رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- عندما تسمع هذه الكلمات من خديجة -رضي الله عنها- تقول له: (كَلَّا، أَبْشِرْ، فَوَاللَّهِ لا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وتَصْدُقُ الحَدِيثَ، وتَحْمِلُ الكَلَّ، وتَقْرِي الضَّيْفَ، وتُعِينُ علَى نَوَائِبِ الحَقِّ)، هذه صفات عظيمة تدل على المعدن النفيس للرسول الكريم، خديجة -رضي الله عنها- استدلت على أن الله لا يخزيه بخصاله الكريمة التي يتصف بها، وهي تؤكد له، والرسول -صلّى الله عليه وسلّم- قال لها: (خَشِيتُ على نفسي)[1]، خاف خوفًا خشي معه أن يذهب عقله، لما حصلت له الحادثة المشهورة بشأن الملَك في غار حراء، فهي تؤكد له عناية الله به وأن الله لا يخزيه، واستدلت على ذلك بخصاله الكريمة التي يتصف بها -صلّى الله عليه وسلّم- فتقول له: (كلا مثلك لا يُخزى)، تنفي أن يُخزى ما دام هو صاحب المعدن الكريم الذي يحمل الخير للخلق، وخارج عن صفاته البشرية التي فيها يفكر الإنسان بنفسه، تقول له بهذه الرواية: (أَبْشِرْ)، لا بد أن يكون هناك استبشار لمن كان هذا معدنه، فوالله لا يخزيك الله أبدًا، لست أنت بالوجه الذي يرده الله، ولست أنت العبد الذي يتخلى عنه ربه، فأنت عبد أكرمت عباده وأشبعت جوعهم وأذهبت ظمأهم وكسوت عورتهم ومسحت على رأس اليتيم وعفوت عمن أساء إليك، (إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ) من قطعك وصلته، تغني القريب وتقوي الضعيف القريب، أنت سند أهلك ووتد لأقربائك، ما سمعوا منك إلا خيرًا ولم يروا منك إلا صلاحًا، أنت لكبيرهم ابن ولصغيرهم أب ولصاحبهم أخ.

(وتَصْدُقُ الحَدِيثَ) فلا تغشهم ولا تشهد زروًا، تعتني بالعاجز، (وتَحْمِلُ الكَلَّ) ليس فقط تعينه، بل وتحمله، بمعنى أنه لا ينزل عنك إلا قد قضيت مسألته ورحمت ذلته، (وتَقْرِي الضَّيْفَ) ما أكرم الناس إذا نزلوا بدارك، (وتُعِينُ علَى نَوَائِبِ الحَقِّ) ومصائب الدهر كثيرة وجراحه عميقة فيأتيك طالب العون فتعينه على نائبته، ويأتيك المكروب فتعينه على كربته، أنت الظهر للبائسين والطبيب لمن جرحته الآلام، وهذا الأمر بالضبط كان وصفًا لأبي بكر، وهذا من العجائب.

هذا ملحظ عظيم، أول من آمن من الرجال أبو بكر -رضي الله عنه- أول من أقبل على وجه الرسول -صلّى الله عليه وسلّم- فآمن هو، ثم في الحديث المشهور لما حصل له -رضي الله عنه- ما حصل من إيذاء قريش، فخرج مهاجرًا نحو أرض الحبشة ووصل برك الغماد -كما في الحديث الذي مررنا عليه في دروس الخميس-

(١) أخرجه البخاري (٥٠٧٦)

ولقيه ابن الدغنة، وهو سيد في قومه، (سيد القارة)، فقال: أين تريد يا أبا بكر؟ قال أخرجني قومي وأريد أن أسيح في الأرض فاعبد الله، فقال له: إن مثلك يا أبا بكر لا يخرج ولا يُخرج مثلك، إنك تكسب المعدوم وتصل الرحم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق.

سبحان ربنا العظيم، كيف أن هذه المعادن هي التي يعجل بها إلى الخيرات، يصطفى النبي -صلّى الله عليه وسلّم- ويختار له من يوافقه في معدنه، وأبو بكر -رضي الله عنه- أحسن مثالًا يقال في فهم هذا الحديث: (فَخِيَارُكُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُكُمْ فِي الإِسْلامِ إِذَا فَقِهُوا) أصحاب هذه الصنائع ما يكونون إلا خيار الناس، أصحاب المعدن النفيس لا يخزيهم الله، ولا يكلهم إلى بعيد كافر أو إلى قريب ظالم، هم أولى الناس بسعادة الدنيا والآخرة، وهذا واضح، كيف سخّر ربنا لأبي بكر -رضي الله عنه- أمثال ابن الدغنة وهو ليس بمسلم، وإنما كان يعرف أبو بكر -رضي الله عنه- من تردده على مكة، فلقيه في الطريق ونصره وآزره وإعادة إلى مكة وأدخله في جواره ثم له قصة معروفة.

هكذا نفهم أن الناس معادن، وهذه المعادن لها أثر إذا حصل الفقه، وليس ببعيد عمر -رضي الله عنه- المثل الواضح في القوة والشجاعة، معدن من الرجال نادر، في قوة الشكيمة وفي نصرة ما يحمل من الحق، قد كان يظن أن ما هو عليه من أمر الجاهلية هو حق، فقاتل دونه، وجعل يحارب النبي -صلّى الله عليه وسلّم- على أنه أتى بباطل، فلما فقه وسمع الحق وفتح الله مغاليق قلبه كل قوة كان يملكها جعلها مسخرة لدين الإسلام، وخرج الخلق في هجرتهم سرًا وخرج هو علانية متحديًا قريش كلها، (فَخِيَارُكُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُكُمْ فِي الإِسْلامِ إِذَا فَقِهُوا) فلا يمكن تجاهل هذه العطايا من الله وهذه الفروق بين الخلائق هذه الطباع التي أعطي الخلق إياها، لكن لا تظن أن حمل النفس على الترقي لا يأتي بنتائج، فمن يتصبر يصبره الله ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون فلا يخدعنك الشيطان وتظن أن من وهبهم الرحمن هذه الصفات هم فقط السابقون، أين تكون المجاهدة إذا كان هذا هو الرأي، لكن الحق أن هؤلاء قد مُنَّ عليهم بمنن، الواجب على من مُنَّ عليه أن ينتفع وأن يتفقه وأن يتعلم وأن يعرف يستخدم هذه العطية، هذا الواجب على من وهبه الله، ومن كان أضعف أو أقل فليجاهد وليحاول وكل هذا في ميزان الحسنات.

عندما ننظر إلى كلام صاحب (رَشُ البَرَد) الذي علق على كتاب (الادَب المُفرَد) -رحمه الله- يقول:

شرحُ الكلمات:

- معادن العرب: أي أصولها، وإنما عبر عن القبائل بالمعادن لما فيها من الاستعداد المتفاوت، أو شبههم بالمعادن لكونهم أوعية للشرف كما أن المعادن أوعية للجواهر الثمينة.

كلام النبي -صلّى الله عليه وسلّم- (فَعَنْ مَعَادِنِ الْعَرَبِ تَسْأَلُونِي؟) تشبيه منه -صلّى الله عليه وسلّم- عن أحوال العرب المختلفة بالمعادن.

فهناك من العرب من جوهره مثل الذهب، والأمثلة التي مرت معنا واضحة، بل كل الجيل الذي تربى على يد النبي -صلّى الله عليه وسلّم- ظهر آثار معدنه عليه من المهاجرين أو من الأنصار أو من غيرهم من العرب الذين كان معدنهم من الذهب، ثم أقل وأقل حتى يكون الرجل صاحب فضائل وصاحب كمال في جانب، وصاحب معائب في جانب، فيأتي الإسلام فيمحو معائبه ويرفع الفضائل، وهذا إذا (فقهوا) أي: صاروا فقهاء عالمين بالأحكام الشرعية الفقهية.

والمقصود بالفقه أن تصح عقائدهم في الحياة فيعرفوا لِمَ خلقهم الله؟ ويعرفوا المسالك التي يرضون بها الله، لو عرف الإنسان لِمَ هو موجود في الحياة لتصرف كما ينبغي، ولو تعلم ما يرضي الله لسار في الصراط المستقيم.

اللهم مُنَّ علينا بالصراط المستقيم والثبات عليه، مُنَّ علينا بالفقه في الدين، مُنَّ علينا وعلى شباب المسلمين، اللهم اكشف الغفلة عن شبابنا واصرف عنهم كل سوء في أخلاقهم وأحوالهم، أذهب عنهم الغضب والوساوس الشيطانية، واحفظهم بحفظك يا وليّ نعمتنا، اللهم لك الحمد حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بالله.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

اللّقاء الأربعون

الثلاثاء: ٢ شعبان ١٤٤٢ هـ

بسم الله الرّحمن الرّحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمد الله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا، ونسأله بمنه وكرمه أن يجعل دراستنا لحديث رسولنا الكريم -صلّى الله عليه وسلّم- سببًا لنيل شفاعته يوم القيامة، وسببًا لثباتنا على الصراط المستقيم، ثباتنا على الصراط المضروب على جهنم، بينما يمر الناس على حسب أعمالهم، يسرع بنا ونصل سالمين نحن وأحبابنا بهذا العمل الذي نرجو من الله أن يكون خالصًا.

وهو -سبحانه وتعالى- الغفور الشكور، يعطي على العمل القليل الأجر الكثير، فلا تستهن بثلاثين دقيقة تقضيها مع أحاديث النبي -صلّى الله عليه وسلّم- وأنت محتسب على الله أن يكون هذا سببًا للنجاة، فإنه -سبحانه وتعالى- قد جعل أسباب النجاة متناول الخلق إلا أن الخلق يهملون ويقصرون، ومن ثم تضيع الفرص السهلة اليسيرة، نعلم أن ثلاثين دقيقة في حياتنا ما أكثر ما نهدرها، وما أكثر ما تذهب بدون فائدة فنرجو من الله أن يقبل منا هذا العمل ويجعله في ميزاننا -اللهم آمين-.

اليوم إن شاء الله نغلق الباب الذي قرأناه وأطلنا فيه وهو: (بَابُ الْكَرَمِ) نغلق هذا الباب بقراءة فقه الحديث ثم نبتدئ بالباب التالي ..

فِقهُ الحديث:

١) الصحابة سألوا عن مفهوم الكرم عند النبي صلّى الله عليه وسلّم.

لأن الكلمة الواحدة يتداولها الناس وقد يفهم هذا الكلام كل أحد على ما يتصور، فكان الصحابة مهتمين أن يعرفوا ما مفهوم هذه الكلمة عند النبي -صلّى الله عليه وسلّم- لأنه قدوتنا، ما أتانا الرسول أخذناه وما نهانا عنه انتهينا عنه، فما هذه الكلمة عندك يا رسول الله؟

فأفادهم بأنه الجمع بين الشرف والنسب وبين التقوى والعمل الصالح والعلم والفقه في الدين.

وهذا مجموع الخبر في الإجابات الثلاثة من النبي -صلّى الله عليه وسلّم- حيث لفت نظرهم أن أشرف الخلق عند الله أتقاهم، ولفت نظرهم أيضًا أن النسب الشريف له قيمته، والشرف يكون على حسب ما أعطي الإنسان من دين، فهذا النسب يشرف، يوسف -عليه السلام- ابن يعقوب -عليه السلام- ابن إسحاق ابن

خليل الرحمن، إلى هنا يكون الشرف، أما أب إبراهيم -عليه السلام- فليس له شرف، من أين أتى الشرف؟ من مقام الإيمان المحمود.

ثم أتى الخبر الثالث أن الناس يكون لهم طباع حسنة حتى في الجاهلية، الخلق كان عندهم: خيار وأقل من ذلك وعندهم سفهاء، الذي كان طبعه في الجاهلية وسمته وحاله من الخيار فهو من الخيار في الإسلام، (فَخِيَارُكُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُكُمْ فِي الإِسْلامِ) هذه النقلة تحتاج إلى فقه والفقه سيسبب التقوى.

معنى ذلك أن هذه المفاهيم الثلاثة كلها متداخلة: التقوى والعلم وشرف المعدن، بحيث تكون طباع هذا الإنسان أحسن ما تكون، وهذا كلام أشج ابن عبد قيس لما أثنى عليه النبي -صلّى الله عليه وسلّم- بطباعه، قال: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَبَلَنِي عَلَى مَا يُحِبُّ اللَّهُ وَرَسُولُهُ)، فإذا وجدت في نفسك عطية من الله فاحمد الله، إذا رزقت حلمًا احمد الله، إذا رزقت كرمًا احمد الله أن جعل من طبعك ما يساعدك على الإيمان وتعلّم لتثبت؛ لأن كثير من الأحيان ينتقدك الخلق في طبعك لأنهم لا يحسنون أن يكونوا مثلك، فيجدوا الإنسان عنده حلم وأناة فيقولوا: ما أبردك! ويريد أن تكون مثله، تكاد تنفجر!

مثل هذه الأمور الخطيرة التي يمكن أن يشوهها المجتمع للإنسان لا بد أن يكون في حال حرص على ما وهبه الله، اعرف ما وهبك الله وانتفع منه، فالحلم والأناة نعمة، والكرم نعمة، التعاون نعمة، والاهتمام بإصلاح الخلق ودلالتهم على الحق نعمة، كل هذه نعم زدها بالفقه والعلم واهتم بالإخلاص والتقوى حال استعمال هذه النعم، فكانت هذه هي الفائدة الأولى.

٢) إن أصحاب المروءات ومكارم الأخلاق في الجاهلية إذا أسلموا وفقهوا فهم خيار الناس.

بسبب اجتماع المروءات ومكارم الأخلاق مع الإسلام والفقه فيه، فانتفع الإنسان بهذه الصفات لله؛ لأن الإسلام يجعل هذه الصفات لله، والفقه في الدين يجعل هذه الصفات متزنة، الكرم يكون خالصًا وموزونًا، والحلم يكون خالصًا وموزونًا، لا تطرّف على جهة اليمين ولا على جهة الشمال، وبهذا يكون الإنسان انتفع بما وهبه الله من طباع وكان العلم سببًا في توازنه.

٣) أفضل الناس من الصحابة من جمع بين شرف الآباء في الجاهلية وشرف الإيمان والتقوى والفقه في الدين في الإسلام.

هذا دليل على أن الصحابة الكرام أيضًا يتفاوتون، ومن الجهل أن تكون من أهل الإسلام وأهل الإيمان الذين يعرفون للنبي -صلّى الله عليه وسلّم- والصحابة الكرام قدرهم وفضلهم، ويكون عندك جهل فلا يكون عندك شيء من الاطلاع على أنساب هؤلاء الكرام، بل في أحيان كثيرة لا يكون عندك اطلاع على نسب النبي -صلّى الله عليه وسلّم- ولا على هذه السلسلة المباركة التي كان أهلها أصحاب مروءات ومكارم أخلاق، وانتقلت هذه المروءات ومكارم الأخلاق من جيل إلى جيل.

ما سبب هذه المشكلة عندنا ..؟

تصورنا أن الجاهلية جهل كلها، وما تصورنا أن التركيز على الجهل إنما كان بسبب موقفهم من التوحيد والإيمان، وبسبب عبادتهم لغير الرحمن -سبحانه وتعالى- بسبب شركهم، فهم أهل جاهلية لأنهم جهلوا وما عرفوا حق الله -عزّ وجلّ-.

أكيد أن فيهم عيوب لكن في مقابل ذلك فيهم من مكارم الأخلاق التي يتنافسون عليها خلاف الأمّتين العظيمتين التي كانت في زمن العرب وهم الفرس والروم، المجتمع الرومي كان أحسن من المجتمع الفارسي لكن كِلا المجتمعين ما كان ينظر إلى مكارم الأخلاق نظرة الراغب فيها، وقد كانوا في المجتمع الفارسي يعيبون على العرب دفن بناتهم أحياء وكان العرب يعيبون عليهم أنهم يربون بناتهم وأخواتهم ويجملونهم لكي يقعوا عليهم - والعياذ بالله- معرفة مثل هذه الأمور تبين لنا كيف يقول النبي -صلّى الله عليه وسلّم- أنه بُعث ليتمم مكارم الأخلاق، العرب كانت تحمل مكارم أخلاق، لكن كان فيها المشكلتين الأساسيتين:

- أنها لم تكن خالصة لوجه الله وبذلك لم تكن شيئًا.
- كانت تتجاوز الحد وليس لها ضبط.

فكان هذا الشأن لا بد له من اعتدال، فأتى هذا الدين العظيم وأصبحنا نتخلق تعبدًا، كل الأخلاق التي نمارسها طاعة لله -والحمد لله-.

٧٢- بَابُ الإِحْسَانِ إِلَى الْبَرِّ وَالْفَاجِرِ

١٣٠- حَدَّثَنَا الْحُمَيْدِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، قَالَ: حَدَّثَنَا سَالِمُ ابن أَبِي حَفْصَةَ، عَنْ مُنْذِرٍ الثَّوْرِيِّ، عَنْ مُحَمَّدِ ابن عَلِيٍّ -ابْنِ الْحَنَفِيَّةِ-: {هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلَّا الإِحْسَانُ} (الرحمن: ٦٠) قَالَ: (هِيَ مُسَجَّلَةٌ لِلْبَرِّ وَالْفَاجِرِ). قَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ: قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: مُسَجَّلَةٌ مُرْسَلَةٌ.

شرحُ الكلمات:

- مسجَّلةٌ: أي: مطلقة إلى كل أحد برًّا كان أو فاجرًا.

فِقهُ الأثر:

١) عدم الفرق في الإحسان والبر والكرم بين المسلم وغيره، وبين التقي والبغيّ.

هذا الأثر في تفسير آية سورة الرحمن، وهذا التعليق كان من محمد ابن علي -رضي الله عنه-، على -رضي الله عنه- كان له الحسن والحسين من فاطمة -رضي الله عنها-، ثم تزوج -رضي الله عنه- بعد موت فاطمة -رضي الله عنها- بأم محمد، فسموه: محمد ابن علي ابن الحنيفية، وهي من بني حنيفة، خولة بنت جعفر ابن قيس من بني حنيفة، سموه بهذا الاسم وأرادوا التفريق بينه وبين أبناء فاطمة -رضي الله عنها- واشتهر بهذا الاسم، وقد تعلم من علي -رضي الله عنه- علمًا عظيمًا، ومن ذلك أنه -رضي الله عنه- علق هذا التعليق على هذه الآية في سورة الرحمن.

هذه الآية فيها خبر عظيم وتقرير مهم، وإن كان شأنه يوم القيامة لكن هو أيضًا مما يُفهم أثره في الدنيا، فيقول رب العالمين: {هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلَّا الإِحْسَانُ}، والمعنى: أن من خاف القيام بين يدي ربه للحساب فكانت النتيجة أنه أطاعه بأداء الفرائض واجتناب المعاصي وأحسن في أفعاله، وأوصله خوفه هذا للأمان، لما أحسن في أفعاله وذكر جزاؤه أن له كذا وكذا في الجنة، قال بعدها عز وجل: {هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ} في العمل {إِلَّا الإِحْسَانُ} في الثواب، وأعظم الإحسان دخول جنات النعيم.

-فالإحسان الأول: الفعل الحسن من العابد.

-والإحسان الثاني: هو إعطاء الحسن.

فجزاء من أحسن عند رب العالمين أن يعطيه الحسن وهو من باب التفضل -كما مر معنا في أول الكلام- وإلا فإن أعمالنا قليلة لكن رب العالمين غفور شكور، يغفر زلاتنا ونقصنا ويشكر لنا قليل العمل.

فهو -سبحانه وتعالى- يعاملنا بفضله وهو الذي أحسن أولًا إلينا بأن وفقنا إلى العمل الحسن، عُلم من هذا أن جزاء الإساءة السوء، كما قال تعالى في النبأ: {جَزَاءً وِفَاقًا} (الآية: ٢٦) هذا بالنسبة للسياق، فهمنا في السياق أن الله -عزّ وجلّ- يبين أن الوصول إلى رضاه -سبحانه وتعالى- في الدنيا والبذل في الدنيا لن يضيع، إنما هو محفوظ للإنسان، فمن أحسن في عبادة الخالق، ونفع عبيده، وهذا أمر مهم جدًا -سيتبين لنا في الأبواب القادمة- هل جزاء من أحسن في عبادة الخالق ونفع العبيد إلا أن يُحسن إليه بالثواب الجزيل والفوز الكبير والنعيم المقيم والعيش السليم، فالإشارة إلى الجنتين العاليتين التي في الآيات وأنها من نصيب هذا الذي أحسن مما يعين العبد على الإحسان في العبادة، وهذا أصل السياق.

نأتي إلى كلام محمد ابن علي -رضي الله عنه- وأراد بهذا الكلام توسيع هذا المعنى وجعله قاعدة في التعامل وقال: (هِيَ مُسَجَّلَةٌ لِلْبَرِّ وَالْفَاجِرِ)، قال أبو عبد الله -وهو البخاري- نقل عن أبو عبيدة معنى: (مُسَجَّلَةٌ)، يعني: (مُرْسَلَةٌ)، وشارح (الادَب المُفرَد) -رحمه الله- زاد على ذلك فقال: (مطلقة إلى كل أحد برًّا كان أو فاجرًا)، من هنا يظهر ما أردنا من قول إنها قاعدة وأن محمد ابن علي ابن الحنيفية أراد أنها أمر عام.

هي مرسلة لم يشترط فيها بر دون فاجر، بمعنى: أنك حال إحسانك -هذا هو فقه الأثر- وبرك وكرمك أوصل للكل وللجميع، التقي والبغيّ، البر والفاجر، المسلم وغير المسلم، حال الإحسان تكون للإنسان الذي كرمه الله بالإنسانية، أحسن إليه، وإذا أحسنت إليه ما تدري ما يكون أثر إحسانك عليه، ربما كان هذا الإحسان سببًا لدخوله الإيمان، بل هي قاعدة عامة في كل الحياة؛ من أحسن أُحسن إليه وكل من أساء أُسيء إليه، فأنت وقت الإحسان لا تفرق بين بر وفاجر وأحسن إلى الجميع بدون مداهنة ولا تتنازل عن قيمك وهذا ليس تعظيم لأهل الفجور وإنما ارغب لرب العالمين أن يكون هذا العمل خالصًا لوجهه، وأن يكون مقصودك أن يقبل الله منك الإحسان لخلقه، وليس مجرد أن تريد أن تكون كاسبًا لجميع الأطراف ومرضي عنك من البر والفاجر ويحبك المؤمن الطائع ويحبك المنافق، ليس هذا ما يرغب فيه أهل الإيمان، إنما يرغبون أن يكون عملهم خالصًا لرب العالمين وفي أن يكون هذا العمل الخالص لرب العالمين موافقًا لمراد رب العالمين، وأن يكون جهدك هذا غير ضائع، يوقع في نفوس حتى الفاجرين وضعيفي الإيمان أن إيمانك حسن أخلاقك.

نسأل الله أن يحسن أخلاقنا وأن يدفع عنا سوء الأخلاق وأن يعيننا على أن نحسن سواءً كان الذي نعامله برًّا أو فاجرًا ونحتسب ذلك على الله، وهذا لا علاقة له بالمداهنة في الدين أبدًا.

نقرا من باب (٧٣) الأحاديث التي تأتينا في أبواب اليتامى إلى باب (٧٧) ..

٧٣- بَابُ فَضْلِ مَنْ يَعُولُ يَتِيمًا

١٣١- حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ قَالَ: حَدَّثَنِي مَالِكٌ، عَنْ ثَوْرِ ابن زَيْدٍ، عَنْ أَبِي الْغَيْثِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صلّى الله عليه وسلّم: (السَّاعِي عَلَى الأَرْمَلَةِ وَالْمَسَاكِينِ كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَكَالَّذِي يَصُومُ النَّهَارَ وَيَقُومُ اللَّيْلَ).

٧٤- بَابُ فَضْلِ مَنْ يَعُولُ يَتِيمًا لَهُ

١٣٢- حَدَّثَنَا أَبُو الْيَمَانِ، قَالَ: أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ قَالَ: حَدَّثَنِي عَبْدُ اللهِ ابن أَبِي بَكْرٍ، أَنَّ عُرْوَةَ ابن الزُّبَيْرِ أَخْبَرَهُ، أَنَّ عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ صلّى الله عليه وسلّم قَالَتْ: جَاءَتْنِي امْرَأَةٌ مَعَهَا ابْنَتَانِ لَهَا، فَسَأَلَتْنِي فَلَمْ تَجِدْ عِنْدِي إِلَّا تَمْرَةً وَاحِدَةً، فَأَعْطَيْتُهَا، فَقَسَمَتْهَا بَيْنَ ابْنَتَيْهَا، ثُمَّ قَامَتْ فَخَرَجَتْ، فَدَخَلَ النَّبِيُّ صلّى الله عليه وسلّم فَحَدَّثْتُهُ، فَقَالَ: (مَنْ يَلِي مِنْ هَذِهِ الْبَنَاتِ شَيْئًا، فَأَحْسَنَ إِلَيْهِنَّ، كُنَّ لَهُ سِتْرًا مِنَ النَّارِ).

٧٥- بَابُ فَضْلِ مَنْ يَعُولُ يَتِيمًا مِنْ أَبَوَيْهِ

١٣٣- حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ ابن مُحَمَّدٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ ابن عُيَيْنَةَ، عَنْ صَفْوَانَ قَالَ: حَدَّثَتْنِي أُنَيْسَةُ، عَنْ أُمِّ سَعِيدٍ بِنْتِ مُرَّةَ الْفِهْرِيِّ، عَنْ أَبِيهَا، عَنِ النَّبِيِّ صلّى الله عليه وسلّم قَالَ: (أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ كَهَاتَيْنِ، أَوْ كَهَذِهِ مِنْ هَذِهِ). شَكَّ سُفْيَانُ فِي الْوُسْطَى وَالَّتِي تَلِي الإِبْهَامَ.

١٣٤- حَدَّثَنَا عَمْرُو ابن مُحَمَّدٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا هُشَيْمٌ، قَالَ: أَخْبَرَنَا مَنْصُورٌ، عَنِ الْحَسَنِ، أَنَّ يَتِيمًا كَانَ يَحْضُرُ طَعَامَ ابْنِ عُمَرَ، فَدَعَا بِطَعَامٍ ذَاتَ يَوْمٍ، فَطَلَبَ يَتِيمَهُ فَلَمْ يَجِدْهُ، فَجَاءَ بَعْدَ مَا فَرَغَ ابْنُ عُمَرَ، فَدَعَا لَهُ ابْنُ عُمَرَ بِطَعَامٍ، لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ، فَجَاءَه بِسَوِيقٍ وَعَسَلٍ، فَقَالَ: (دُونَكَ هَذَا، فَوَاللَّهِ! مَا غُبِنْتَ). يَقُولُ الْحَسَنُ وَابْنُ عُمَرَ: (وَاللَّهِ! مَا غُبِنَ).

١٣٥- حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ ابن عَبْدِ الْوَهَّابِ قَالَ: حَدَّثَنِي عَبْدُ الْعَزِيزِ ابن أَبِي حَازِمٍ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي قَالَ: سَمِعْتُ سَهْلَ ابن سَعْدٍ، عَنِ النَّبِيِّ صلّى الله عليه وسلّم قَالَ: (أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا) وَقَالَ بِإِصْبَعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى.

١٣٦- حَدَّثَنَا مُوسَى، قَالَ: حَدَّثَنَا الْعَلاَءُ ابن خَالِدٍ ابن وَرْدَانَ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ ابن حَفْصٍ: (أَنَّ عَبْدَ اللهِ كَانَ لاَ يَأْكُلُ طَعَامًا إِلَّا وَعَلَى خِوَانِهِ يَتِيمٌ).

٧٦- بَابُ خَيْرُ بَيْتٍ بَيْتٌ فِيهِ يَتِيمٌ يُحْسَنُ إِلَيْهِ

١٣٧- حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ ابن عُثْمَانَ، قَالَ: أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللهِ، قَالَ: أَخْبَرَنَا سَعِيدُ ابن أَبِي أَيُّوبَ، عَنْ يَحْيَى ابن أَبِي سُلَيْمَانَ، عَنِ ابْنِ أَبِي عَتَّابٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلّى الله عليه وسلّم: (خَيْرُ بَيْتٍ فِي الْمُسْلِمِينَ بَيْتٌ فِيهِ يَتِيمٌ يُحْسَنُ إِلَيْهِ، وَشَرُّ بَيْتٍ فِي الْمُسْلِمِينَ بَيْتٌ فِيهِ يَتِيمٌ يُسَاءُ إِلَيْهِ، أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ كَهَاتَيْنِ) يُشِيرُ بِإِصْبَعَيْهِ.

٧٧- بَابُ كُنَّ لِلْيَتِيمِ كَالأَبِ الرَّحِيمِ

١٣٨- حَدَّثَنَا عَمْرُو ابن عَبَّاسٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ، قَالَ: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ قَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ ابن أَبْزَى قَالَ: قَالَ دَاوُدُ: «كُنَّ لِلْيَتِيمِ كَالأَبِ الرَّحِيمِ، وَاعْلَمْ أَنَّكَ كَمَا تَزْرَعُ كَذَلِكَ تَحْصُدُ، مَا أَقْبَحَ الْفَقْرَ بَعْدَ الْغِنَى! وَأَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ، أَوْ أَقْبَحُ مِنْ ذَلِكَ، الضَّلاَلَةُ بَعْدَ الْهُدَى، وَإِذَا وَعَدْتَ صَاحِبَكَ فَأَنْجِزْ لَهُ مَا وَعَدْتَهُ، فَإِنْ لاَ تَفْعَلْ يُورِثُ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ، وَتَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنْ صَاحِبٍ إِنْ ذَكَرْتَ لَمْ يُعِنْكَ، وَإِنْ نَسِيتَ لَمْ يُذَكِّرْكَ».

١٣٩- حَدَّثَنَا مُوسَى، قَالَ: حَدَّثَنَا حَمْزَةُ ابن نَجِيحٍ أَبُو عُمَارَةَ قَالَ: سَمِعْتُ الْحَسَنَ يَقُولُ: (لَقَدْ عَهِدْتُ الْمُسْلِمِينَ، وَإِنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ لَيُصْبِحُ فَيَقُولُ: يَا أَهْلِيَهْ! يَا أَهْلِيَهْ! يَتِيمَكُمْ يَتِيمَكُمْ، يَا أَهْلِيَهْ! يَا أَهْلِيَهْ! مِسْكِينَكُمْ مِسْكِينَكُمْ، يَا أَهْلِيَهْ! يَا أَهْلِيَهْ! جَارَكُمْ جَارَكُمْ، وَأُسْرِعَ بِخِيَارِكُمْ وَأَنْتُمْ كُلَّ يَوْمٍ تَرْذُلُونَ). وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: (وَإِذَا شِئْتَ رَأَيْتَهُ فَاسِقًا يَتَعَمَّقُ بِثَلاَثِينَ أَلْفًا إِلَى النَّارِ مَا لَهُ قَاتَلَهُ اللَّهُ؟ بَاعَ خَلاَقَهُ مِنَ اللهِ بِثَمَنٍ عَنْزٍ! وَإِنْ شِئْتَ رَأَيْتَهُ مُضَيِّعًا مُرْبَدًّا فِي سَبِيلِ الشَّيْطَانِ، لاَ وَاعِظَ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ وَلاَ مِنَ النَّاسِ).

١٤٠- حدَّثنا موسى قال: حدَّثنا سَلامُ ابن أبي مطيع، عن أسماء ابن عُبيد قالَ: قلتُ لابن سيرين: عندِي يتيمٌ؟ قالَ: (اصنعْ بهِ ما تصنعُ بولدِكَ؛ اضربْهُ ما تضربُ ولدّكَ).

هذه الأبواب جميعها، وسيأتي بعدها أيضًا أبواب تتكلم عن اليتيم وستكون غاية في البيان عندما نفهم ما مضى من (بَابُ الْكَرَمِ) ومن (بَابُ الإِحْسَانِ إِلَى الْبَرِّ وَالْفَاجِرِ) كيف يكون الإنسان صاحب طباع حسنة فيكون الإحسان حاله دائمًا، ومن أهم من يحسن إليه هم اليتامى.

نسأل الله أن يسددنا ويوفقنا لهذه الأعمال الحسنة وأن يجعلنا محسنين أبدًا.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

اللّقاء الواحد والأربعون

الأحد: ٧شعبان ١٤٤٢ هـ

بسم الله الرّحمن الرّحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمد الله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا ونسأله بمنه وكرمه أن يجعلنا من المتقين الأبرار، ويجعلنا ممن أحسن إلى الخلق واغتنم الفرص في إكرام اليتامى، والمحتاجين، فرفعه ذلك درجات عند رب العالمين -اللهم آمين-.

كنا قد بدأنا بالكلام عن فضل من يعول يتيمًا وقرأنا الأحاديث بصورة مجملة في نهاية اللّقاء الماضي، نبدأ اليوم بقراءة الباب الثالث والسبعون ..

٧٣- بَابُ فَضْلِ مَنْ يَعُولُ يَتِيمًا

١٣١- حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ قَالَ: حَدَّثَنِي مَالِكٌ، عَنْ ثَوْرِ ابن زَيْدٍ، عَنْ أَبِي الْغَيْثِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صلّى الله عليه وسلّم: (السَّاعِي عَلَى الأَرْمَلَةِ وَالْمَسَاكِينِ كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَكَالَّذِي يَصُومُ النَّهَارَ وَيَقُومُ اللَّيْلَ).

شرحُ الكلمات:

- الأرملة: المرأة التي مات عنها زوجها.

فِقهُ الحديث:

١) السعي على الأرملة واليتيم والإنفاق عليهما والقيام على أمورهما جهاد في سبيل الله.

٢) الحضُّ على كشف كربات الضعفاء والمحتاجين.

عقد البخاري هذا الباب: (بَابُ فَضْلِ مَنْ يَعُولُ يَتِيمًا) واستشهد بهذا الحديث الذي رواه أبو هريرة -رضي الله عنه- فقال -صلّى الله عليه وسلّم-: (السَّاعِي عَلَى الارْمَلَةِ وَالْمَسَاكِينِ كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللهِ) يا لها من مكانة عظيمة، (وَكَالَّذِي يَصُومُ النَّهَارَ وَيَقُومُ اللَّيْلَ) وهنا يقصد صيام النهار وقيام الليل بالنوافل، وهذه من أعظم القربات إلى الله، فجعل الرسول -صلّى الله عليه وسلّم- منزلة هذا العمل كمنزلة الجهاد في سبيل الله، والجهاد في سبيل الله من المعلوم أنه من الأعمال التي عليها أجور عظيمة، فكيف يكون هذا العمل الأقل مثل العمل الأعلى؟!

هذا ليس عملًا أقل، فالساعي على الأرملة والمسكين يقوم بمصالحهما ومؤونتهما وما يلزمهما، فالأرملة التي مات عنها زوجها والمسكين ليس له من المال ما يسد حاجته، والأرملة غالبًا يكون معها يتيم؛ لذلك سمى الباب: (فَضْلِ مَنْ يَعُولُ يَتِيمًا) من يقوم بهذا الفعل ويسعى على هؤلاء، سعيه عليهم سيسُد بابًا عظيمًا من أبواب الحاجة الاجتماعية، ولنركز على الأرملة التي مات زوجها ولها أبناء معلقين برقبتها، ليس لها من يقوم بشؤونها، فهي منكسرة ضعيفة بحاجة إلى الرعاية، ولو أرادت أن تقوم بشؤونها يمكن أن تتعرض إلى أمور كثيرة خطيرة، والناس ليسوا سواء، ويمكن أن تتعرض لرجال يهينون كرامتها، وربما كانت محفوظة من هذا الجانب، لكن لو خرجت تقوم بالشؤون ستهمل الأبناء الصغار الذين لا عائل لهم وربما هناك أعمال تحتاج أن تقف في طوابير طويلة أو إجراءات طويلة، أو حتى اليوم والإجراءات إلكترونية لكن قد تكون غير واعية أو لا تعرف كيف تتصرف مع هذه الأجهزة ويضيع حق لها أو حق لأبنائها.

أمّا المسكين فهو الذي يكون ذا ضعف في القدرة على سد حاجته أو حتى على تحصيل مصالحه.

هؤلاء الضعفاء لو وقفت معهم بدون أن تعطيهم مالًا، فقط وقفت على شؤونهم، تراجع معاملاتهم، تتابع لهم مصالحهم، حتى لو كنت فقط تكلم لهم المحسنين من أجل أن يعطوهم ويرعوهم، هذا اسمه السعي على الأرملة واليتيم والمسكين؛ لأنه قد لا يكون لك مال تنفقه لكن عندك قوة وطاقة وتعرف تدافع عن حقهم أو تأتي لهم بحقهم أو تراجع لهم في الدوائر التي يصعب لهم معرفة الطريقة التي يتصرفون بها، حتى لو لم يكن معك مال من عندك، حتى لو كنت الواسطة التي تقول لهم هنا أرملة وأيتام يحتاجون كذا فتذهب وتشتري لهم وتعطيهم من مال غيرك، بمعنى تعين وتساعد، لا يشترط أن يكون صاحب المال الذي ينفق منه، ولو أنفق من ماله لكان أكمل لكن هذا فضل الله يؤتيه من يشاء.

نلاحظ هذه الشريعة العظيمة؛ النبي -صلّى الله عليه وسلّم- أخبر أنه في السهم الواحد يدخل الجنة ثلاثة، لا تتصور أن الشريعة تحدد أشخاص معينين فقط وتضيق على الباقي أو من عنده مال فقط يستطيع أن يصل على هذه المرتبة، نفكر في قول رسول الله: (إِنَّ اللهَ يُدخِلُ بالسَّهمِ الواحِدِ ثلاثَةَ نَفَرٍ الجَنَّةَ: صانِعَهُ يَحتسِبُ في صَنعتِهِ الخيرَ، والراميَ به، ومُنَبِّلَهُ)[1] الذي يحمل السهم من عند الصانع ويناوله للرامي، صانع السيف أو السهم أو البندقية المحتسب، يريد به وجه الله حتى يساعد المجاهدين ومن يرمي به ومن يناول أخوه، هؤلاء الثلاثة لو احتسبوا هذا لله فهذا من أسباب دخول الجنة، ما أعظم هذا الشرع، ما أعظم رب العالمين الغفور الشكور الذي يعطي على العمل القليل الأجر الكثير.

(١) أخرجه مسلم (١٩١٩)

الساعي على الأرملة والمساكين سيكون صاحب المال والواسطة بينهم وكل من ساهم في إيصال الخير لهؤلاء -سبحان الله- فضل الله واسع يؤتيه من يشاء، هذا لا يختص بالأغنياء وأهل اليسار؛ لذا تجد أن بعض الجمعيات والأوقاف تقوم مخلصين صادقين مريدين وجه الله وهم ما عندهم أموال، لكن في قلبهم إلحاح شديد، ويدعون لمساعدة هؤلاء وهؤلاء وهم لا يكون عندهم مال لكن يطمعون في هذا الفضل العظيم.

اللهم ارزقنا نصيبًا عظيمًا من هذا الباب العظيم واجعلنا من أهل الرحمة الذين يشعرون بإخوانهم المسلمين، واجعل أعمالنا خالصة لوجهك في هذا الباب وكل باب، وبلغنا يا رب العالمين السعي على الأرملة والمسكين واجعلها يوم القيامة في الموازين يا رب العالمين كالجبال الراسيات -اللهم آمين-.

النبي -صلّى الله عليه وسلّم- يبين أن هؤلاء كالمجاهدين في سبيل الله، مرتبة عالية، وفي رواية: (كالقائم الذي لا يَفْتُرُ، وكالصائم الذي لا يُفْطِرُ) من يستطيع أن يصوم ولا يفطر ويقوم ولا يفتر؟ هذه من التكاليف الصعبة سواءً كان الجهاد في سبيل الله أو الصيام طوال النهار والقيام طوال الليل، شيء صعب لا يستطيعه الإنسان، لكن الله -عزّ وجلّ- جعل هذا العمل وإن كان بسيطًا لمن احتسبه في منزلة هذا الفعل.

فتذهب وتقضي لهم حوائج، توفر لهم مواصلات يصلون إلى المستشفى أو يصل اليتامى إلى مدارسهم أو أرملة مثلًا ليس عندها جهاز لابنها أو ما عندها أن تشتري خدمة الشبكات للتعليم عن بعد، فتذهب وتأتي لها بالجهاز من الشركة وتسدد لها كل شهر، أو تطلب من يسدد لها، تدفع إيجار، تسكن أحد في مكان، ترتب له موعد مع طبيب، تأتي له بما يصلح شيء في دراه.

مثلًا هذا كبير في السن أو فقير ويشكو لك أن الجدار يسرب أو المكيف خرب أو أي شيء من أحوال الحياة التي نستطيع أن نسدها بسهولة أو نعرف أحد يستطيع سدها، هذا كله سعي على الأرملة والمساكين، هذا السعي يسير لكن لماذا عليه هذا الأجر الكبير؟ لأن الراحمون يرحمهم الله، هذا ما يحرك الوجدان ويجعل الإنسان يفكر في رحمة الرحمن -سبحانه وتعالى- كيف -سبحانه وتعالى- يأمر رسوله بتبليغنا بهذا الخبر لأجل أن نطمع في رحمته -سبحانه وتعالى- وفي هذه الأجور فيحصل من الرحمة لغيرنا.

فبعد الفرائض، الإنسان يقوم بالفريضة وبما يقوي إيمانه ويحتسب على هذه الأعمال إذا كان قد رزق قوة في ذلك، إذا ما رزق قوة في هذا يشعر أنه يصعب عليه مخالطة الناس والسؤال عنهم، يساعد من بعيد بماله ويستعمل ثقات يقومون بهذا العمل، هذا لو كان عنده مال واستطاعه، وإن ما كان عنده مال واستطاعة يبذل جهده، وكل هذا دليل على أن الإنسان لا يعيش لنفسه، وإشارة إلى أن الشريعة لا تريد منك

أن تكون ذاك الملهوف على الدنيا، المقبل عليها، العبد لشهواتها! تريد منك أن تكون ذاك الحريص على أن تعمر الدار الآخرة وعلى أن تطلب رحمة الله برحمة المخلوقين.

وهنا كثيرًا ما يأتي الكلام عن النفع المتعدي والنفع القاصر، العمل الذي أنفع به نفسي مثل في الحديث: (لأَنْ أمشيَ مع أخٍ في حاجةٍ؛ أَحَبُّ إليَّ من أن اعتكِفَ في هذا المسجدِ -يعني مسجدَ المدينةِ- شهرًا)[1] هنا نحتاج إلى فقه وموازنات في الأعمال الصالحة لأن العمر قصير يستغرقه غفلة ومعصية وأعمال للدنيا، فهل نترك الأعمال الخاصة مثل قراءة القرآن وقيام الليل ونذهب للأعمال المتعدية؟ المقصود أن الأوقات التي تضيع في أعمال لا قيمة لها من جهة الدنيا هي التي تبذل جهدك أن تدعها وتصرف هذا الوقت في هذا الشأن.

نفترض.. أنك تريد أن تخرج للتسوق، والجارة تحتاج منك إعانة في شيء معين لا تستطيع أن تنجزه وحدها وهو ليس أمرًا ثانويًا إنما أمر من صميم حاجاتها ولا عائل لها، فيقال لك: هذا الوقت هو الذي تغتنميه وتؤجلين حاجاتك التي من هذا النوع، المقصود أن تبحث عن الوقت الذي يضيع عليك وتستفيد منه في هذه الأعمال وتخطط لذلك، أو الوقت الذي أنت أصلًا تقوم فيه بأعمال ويمكن أن تضيف هذا العمل على جدولك ولا يتأثر.

مثلًا.. عندك من يوصل أولادك على مدرستهم، ومدرسة هذه المرأة التي تحتاج في الطريق، فلا تجعل الشيطان يبخلك وتقول: سيؤثر هذا على وصول أولادي! تعمل ما تستطيع لأجل أن تقوم بمصالحك ومصالح هؤلاء، الكلام عن أنك تستفيد من كل الفرص، لا بد أن نستثمر هذا المال وهذا العمر وهذه القوة وهذا البيت والسيارة والمطعوم والمشروب وهذا الجهاز وهذه القدرة، كلها المفروض أن نستثمرها في أجل الأشياء وأفضلها والتي تبلغنا أعلى المنازل.

نحن نتاجر مع الله فلا بد أن يكون لنا في هذه التجارة أسهمًا عظيمة، تصور! (من بنَى للهِ مسجدًا ولو كمِفحصِ قطاةٍ بُني له بيتٌ في الجنَّةِ)[2] وهذا أصغر ما يمكن أن تتصوره، لا يستطيع الإنسان أن يقف فيه، لكن كم من الأجور التي تنتج عندما تبني مسجدًا ويكون مكتظًا بالمصلين وكلهم يصلون ويقرؤون القرآن، فأنت فكر في اغتنام ما تستطيع من كفالة أرملة أو يتيم أو السعي على فقير، ابحث، تاجر مع الله، وكلّ يتاجر على حسب قدرته، والموفق من لم يدع بابًا من الأبواب يستطيعها إلا طرقها واغتنمها.

فالحمد لله كلما تأملنا في هذا وجدنا عظم هذا الدين، وكيف أن رب العالمين جعل باب التكافل والتعاون الذي ينتج من الرحمة بابًا عظيمًا من أبواب الأجور، عندنا الأرملة لا تضيع واليتيم والمسكين لا يضيعون،

---

(١) صححه الألباني.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٧٣٨)

عندنا الناس يتسابقون على مصالح هؤلاء، لكن المشكلة عندما تدخل الرأسمالية المتوحشة على الناس التي تحول الإنسان إلى بهيمة تجري وراء شهواتها، عندما يصبح المجتمع بهذه الطريقة، هذا سيكون سببًا لضياع هؤلاء الضعفاء وسببًا لابتزازهم، المرأة تُبتز بعرضها، وهذا يحصل في كثير من الأنحاء في العالم عند القوم الذين لا يعرفون الله، ما عندها مال تقوم بمصالحها وتدفع عنها المكاره فتبتز بالعرض، يستغل ضعفها وحاجتها.

كلما كان في طريقك هذا الباب مفتوح لا تقصر في الدخول إليه، ستجاهد نفسك والشيطان والناس الذين حولك يزهدونك، ستجاهد لكن فلتكن ثابتًا في هذا الجهاد ولتعلم أن المجاهدين لهم درجات عظيمة عند رب العالمين، معلوم أن مَن نفّس كربة على مسلم نفّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، يا لله! ماذا يكون تنفيس كربة من كرب الدنيا مقابل تنفيس كربة من كرب يوم القيامة، ما أعظم رب العالمين الذي جعلنا نتعاطف ونتراحم ووعدنا بالأجور العظيمة التي تنفعنا عندما نلقاه، نسأل الله أن يرزقنا هذا الباب واسعًا طيبًا وأن نكون فيه من المخلصين -اللهم آمين-. ننتقل للباب التالي ..

٧٤- بَابُ فَضْلِ مَنْ يَعُولُ يَتِيمًا لَهُ

١٣٢- حَدَّثَنَا أَبُو الْيَمَانِ، قَالَ: أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ قَالَ: حَدَّثَنِي عَبْدُ اللهِ ابن أَبِي بَكْرٍ، أَنَّ عُرْوَةَ ابن الزُّبَيْرِ أَخْبَرَهُ، أَنَّ عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ صلّى الله عليه وسلّم قَالَتْ: جَاءَتْنِي امْرَأَةٌ مَعَهَا ابْنَتَانِ لَهَا، فَسَأَلَتْنِي فَلَمْ تَجِدْ عِنْدِي إِلَّا تَمْرَةً وَاحِدَةً، فَأَعْطَيْتُهَا، فَقَسَمَتْهَا بَيْنَ ابْنَتَيْهَا، ثُمَّ قَامَتْ فَخَرَجَتْ، فَدَخَلَ النَّبِيُّ صلّى الله عليه وسلّم فَحَدَّثْتُهُ، فَقَالَ: (مَنْ يَلِي مِنْ هَذِهِ الْبَنَاتِ شَيْئًا، فَأَحْسَنَ إِلَيْهِنَّ، كُنَّ لَهُ سِتْرًا مِنَ النَّارِ).

فِقهُ الحديث:

١) مضى شرحه برقم/ ٨٩ في باب: الوالدات رحيمات.

هذا الباب -كما ذكر الشارح- نقاشه في باب (الوالدات رحيمات) وأيضًا في (فضل من يعول يتيما له). المرأة بناتها أيتام عندها، فاليتيم قد يكون لك وقد يكون لغيرك، الباب الأول كان على وجه العموم؛ ترعى أي يتيم لك أو لغيرك، فالذي يسعى على الأرملة والمساكين كالمجاهد في سبيل الله والصائم والقائم، هذا عمومًا، وحين يكون هؤلاء أبنائي، أو يكون هؤلاء من قرابتي، هذا أمر أعظم، كنّ له سترًا من النار خصوصًا لو كانوا بنات

والسبب -قد سبق مناقشته- كيف أن هذه الأعراض يمكن أن تتعرض لشيء عظيم. ننتقل للباب الخامس والسبعون ..

٧٥- بَابُ فَضْلِ مَنْ يَعُولُ يَتِيمًا مِنْ أَبَوَيْهِ

١٣٣- حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ ابن مُحَمَّدٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ ابن عُيَيْنَةَ، عَنْ صَفْوَانَ قَالَ: حَدَّثَتْنِي أُنَيْسَةُ، عَنْ أُمِّ سَعِيدٍ بِنْتِ مُرَّةَ الْفِهْرِيِّ، عَنْ أَبِيهَا، عَنِ النَّبِيِّ صلّى الله عليه وسلّم قَالَ: (أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ كَهَاتَيْنِ، أَوْ كَهَذِهِ مِنْ هَذِهِ). شَكَّ سُفْيَانُ فِي الْوُسْطَى وَالَّتِي تَلِي الإِبْهَامَ.

شرحُ الكلمات:

- كافل اليتيم: أي: القيّم بأمره ومصالحه من نفقة وكسوة وتأديب وتربية وغير ذلك.

فِقهُ الحديث:

١) الترغيب في رعاية اليتيم والقيام على أمواله وأن ذلك سبب دخول الجنة.

٢) فيه إشارة إلى أن بين درجة النبي -صلّى الله عليه وسلّم- وكافل اليتيم قدرَ تفاوت ما بين السبابة والوسطى.

٣) قال ابن بطال: حُقَّ على من سمع هذا الحديث أن يعمل به ليكون رفيق النبي -صلّى الله عليه وسلّم- في الجنة، ولا منزلة في الآخرة أفضل من ذلك.

لا منزلة في الآخرة أن يكون الإنسان أفضل من أن يكون مع الرسول -صلّى الله عليه وسلّم- لكن هذا الحديث -كما عقد البخاري الباب- أن يكون يتيمًا عنده، بمعنى: يكون هذا مثلًا العم أو الجد أو الجدة.

وهنا يقصد الكفالة التامة، أي القيم بأمره ومصالحه من نفقة وكسوة وتأديب وتربية وغير ذلك، لا بد أن يكون كافل اليتيم الذي يتحقق فيه هذا الجزاء يتحقق فيه هذا الشرط -والله أعلم- أن تحصل له الكفالة التامة. إن شاء الله يزداد الأمر بيانًا في اللّقاء القادم.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

اللّقاء الثاني والأربعون

الثلاثاء: ٩شعبان ١٤٤٢ هـ

بسم الله الرّحمن الرّحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمد الله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا ونسأله بمنه وكرمه أن يوفقنا إلى الأعمال الصالحة التي يحبها ربنا ويرضاها منا وأن يجعلنا للمتقين إمامًا، نقوم نحن بالأعمال الصالحة ونرشد من ورائنا إليها ونكون سببًا لنشرها في أوساط المسلمين، بل نكون سببًا في نشرها للعالمين، وندعو بها إلى هذا الإسلام العظيم الذي بني على الرحمة، وقد أرسل الله رسوله لهذا الشأن العظيم: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ} (الأنبياء: ١٠٧) وكل ما في دين الإسلام من أوامر أو نواهي فإنه مراد بها رحمة الإنسان؛ وليس رحمة الإنسان أن يعطى كل ما يهواه، بل رحمة الإنسان أن يُرشد إلى الخير، ويُنهى عن الشر، ويؤخذ بيده لأعالي الجنان -فالحمد لله- الذي جعلنا على ملة الإسلام وأنزل على رسوله القرآن والحكمة التي نطق بها رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- وها نحن نتدارسها من فضل الله علينا.

وكنا قد وصلنا في الدارسة للأبواب التي فيها (فَضْلِ مَنْ يَعُولُ يَتِيمًا مِنْ أَبَوَيْهِ) وهذا الباب تابع للباب السابق الذي فيه إشارة إلى فضل إعالة الأيتام عمومًا، سواءً كان السعي عليهم حتى لو لم يكونوا تحت حضانته، أو يكونوا هم أيتامه مثل الأم وأبناءها، أو يكون هو أخ أو عم أو خال لهم ويكونون تحت رعايته وكفالته، فقيل لهذا الذي يكفل اليتيم بمعنى: يقوم بأمره ومصالحه سواءً كان بنفقة أو كسوة أو تأديب وتربية، قيل له: أنت يا كافل اليتيم مع رسول الله، فالنبي -صلّى الله عليه وسلّم- قال: (أنا وَكافلُ اليتيمِ في الجنَّةِ كَهاتين) وجمع -صلّى الله عليه وسلّم- إصبعيه الوسطى والتي تلي الإبهام وقال: أنا وكافل اليتيم كهاتين، وهذا دليل على أنه في درجة عظيمة -كما ذكر الشارح في الفوائد- قال:

فيه إشارة إلى أن بين درجة النبي -صلّى الله عليه وسلّم- وكافل اليتيم قدرَ تفاوت ما بين السبابة والوسطى، وهذا قدر بسيط يشير إلى عظمة هذا العمل وإلى ارتفاع صاحبه، وهكذا تكون البلاءات والاختبارات على الناس فتحًا لأبواب الأجور كما سيزداد الأمر بيانًا مع قراءة بقية الأحاديث.

هكذا الدين القويم الذي يدلك على رب العالمين، لا باب شر تظنه فُتح عليك إلا تجد من ورائه باب خير عليك، فموت والد هؤلاء في ظاهره أنه شر لكن الله أعلم بالخير فيه من كونك تكون كافل اليتيم فترتفع عند رب العالمين وتجاور الرسول الكريم، هل هناك خير مثل هذا الخير؟ لم تحظَ برفقة النبي -صلّى الله عليه وسلّم-؟ ولم تكون صاحبه من جهة الزمان ولم تستطع كل الأعمال أن ترقيك إلى هذه الدرجة العظيمة! فتكون رزقت أن يكون عندك يتيم في بيتك فتكون ممن كفله، وهذه الكفالة تجعلك معه -صلّى الله عليه وسلّم-.

قال ابن بطال: (حَقٌّ عَلَى مَنْ سَمِعَ هَذَا الْحَدِيثَ أَنْ يَعْمَلَ بِهِ لِيَكُونَ رَفِيقَ النَّبِيِّ -صلّى الله عليه وسلّم- فِي الْجَنَّةِ وَلَا مَنْزِلَةَ فِي الْآخِرَةِ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ) والعلماء هنا لهم قول في هذه المسألة في كون أن اليتيم الذي يكون كافله مع النبي -صلّى الله عليه وسلّم- إنما من يكون قام على هذا اليتيم قيامًا تامًا وليس مجرد الإنفاق عليه؛ لذا العمل بهذا الحديث إنما هو عندما يكون عند هذا الذي هو قادر على الكفالة، يتيم يستطيع أن يكفله هذه الكفالة التامة -والله أعلم-.

١٣٤- حَدَّثَنَا عَمْرُو ابن مُحَمَّدٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا هُشَيْمٌ، قَالَ: أَخْبَرَنَا مَنْصُورٌ، عَنِ الْحَسَنِ، أَنَّ يَتِيمًا كَانَ يَحْضُرُ طَعَامَ ابْنِ عُمَرَ، فَدَعَا بِطَعَامٍ ذَاتَ يَوْمٍ، فَطَلَبَ يَتِيمَهُ فَلَمْ يَجِدْهُ، فَجَاءَ بَعْدَ مَا فَرَغَ ابْنُ عُمَرَ، فَدَعَا لَهُ ابْنُ عُمَرَ بِطَعَامٍ، لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ، فَجَاءَه بِسَوِيقٍ وَعَسَلٍ، فَقَالَ: (دُونَكَ هَذَا، فَوَاللَّهِ! مَا غُبِنْتَ). يَقُولُ الْحَسَنُ وَابْنُ عُمَرَ: (وَاللَّهِ! مَا غُبِنَ).

شرحُ الكلمات:

- ما غُبِنت: ما خسرت.

فِقهُ الحديث:

١) اهتمام الصحابة بالإحسان إلى الأيتام والعناية بهم عناية بالغة.

هذا الأثر فيه حال الصحابة الكرام واهتمامهم بمسألة رعاية الأيتام، وهذه الرعاية هنا رعاية فيها إكرام، فالحسن يحكي أن يتيمًا كان يحضر طعام ابن عمر، وهذه من طبائع ابن عمر، أن يجعل طعامه سببًا للأجور، فليس هناك عمل عظيم قد ذكر وتكرر في القرآن ذكره من الأعمال الصالحات كإطعام الطعام، وهذه فرصة أن نتكلم عن هذا الموضوع العظيم، وهو موضوع إطعام الطعام والاهتمام به وجعله من سنن الإنسان.

فانظر إلى ابن عمر كيف كان حاله، كان معتنيًا بإطعام الطعام ومعتنيًا بأن يكون على مائدته من يؤجر عليه، فيقول الحسن: إن يتيمًا كان يحضر لابن عمر فدعا بطعام ذات يوم فطلب يتيمه، الذي اعتاد أن يأكل عند ابن عمر، فلم يجده، فجاء اليتيم بعدما فرغ ابن عمر من طعامه، ما تركه وقال له: ذهبت عليك

الفرصة! وإنما ابن عمر يرى أنها فرصة له هو، فدعا له ابن عمر بطعام، نفس الذي أكله أو قريب منه مما يؤكل في هذا الوقت، سواءً كان إفطار أو غداء، فلم يكن عندهم، فرغ طعامهم، فجاءه بسويق وعسل، كأنه الحلا، وهو شيء أعلى من الطعام الذي أكله ابن عمر، فقال ابن عمر للغلام: خذ هذا حق لك (فَوَاللَّهِ! مَا غُبِنْتَ)؛ يعني طعامك خير من طعامي الذي جلست عليه وأكلته، يقول الحسن وابن عمر: (وَاللَّهِ! مَا غُبِنَ)؛ ما خسر هذا الطعام الذي أعطاه إياه؛ لأن إطعامه والاهتمام بالإطعام عمومًا وإطعام اليتيم خصوصًا من صفات الأبرار؛ لأن الله -عزّ وجلّ- في سورة الإنسان لما أثنى على الأبرار وأخبر بجزائهم: {إِنَّ الابْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا * يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا * وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا} (الآية:٥-٨) يقول له: (وَاللَّهِ! مَا غُبِنْتَ)؛ {إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا} (الآية: ٩) المحور الطعام، يطعمون: {إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا} (الآية: ١٠) هم يطعمون وفي نفسهم أنهم يريدون وجه الله، أنهم مندفعون في الإطعام، هذه الحاجة المهمة التي تقوم أصل حياة الناس عليها بسبب أنهم يخافون يومًا عبوسًا قمطريرًا، يريدون أن يفرجوا أعظم كربة يمكن أن يمر بها الإنسان وهو جوعه الشديد الذي يؤدي إلى هلاكه. {فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا} (الآية: ١١) هذا هو الجزاء، والله ما غُبن ابن عمر لأن أثر هذا: {وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا * مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الارَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا * وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا} (الآية: ١٢-١٤).

فإطعام الطعام صفة تجعل الإنسان من الأبرار، بل تجعله من أصحاب الميمنة كما هو وارد في سورة البلد: {أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ} (الآية: ١٤) وينوعون في إطعامهم بين: {يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ} (الآية: ١٥-١٦) فهم يرعون أصحاب الحاجات ويختصون بالأيتام والمساكين.

إطعام الطعام له فضائل جمة:

- قال الرسول -صلّى الله عليه وسلّم-: (أَفْشُوا السَّلَامَ وَصِلُوا الارْحَامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ)[١]
- ولما سأل الرجل النبي -صلّى الله عليه وسلّم-: أي الإسلام خير؟ قال: (تُطْعِمُ الطَّعَامَ وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ)[٢]

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٨٥)

(٢) أخرجه البخاري (١٢)

- وقال -صلّى الله عليه وسلّم-: (أَحَبُّ الاعْمَالِ إِلَى اللَّهِ سُرُورٌ تُدْخِلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ، أَوْ تَكْشِفُ عَنْهُ كُرْبَةً، أَوْ تَطْرُدُ عَنْهُ جُوعًا، أَوْ تَقْضِي عَنْهُ دَيْنًا)[1].
- وفي رواية للإمام أحمد أن الرسول -صلّى الله عليه وسلّم- قال: (خيارُكم مَن أطعمَ الطَّعامَ).
- وأيضًا عند الإمام أحمد رواية عن عائشة يخبر فيها الرسول -صلّى الله عليه وسلّم- عن الله: (إنَّ اللهَ ليُربِّي لأحدِكم التَّمرةَ واللُّقمةَ كما يُربِّي أحدُكم فَلُوَّه أو فصيلَه حتَّى تكونَ مثلَ أُحُدٍ).

سبحان الله مسألة إطعام الطعام وخاصة في وقت الحاجات والأزمات والكربات أمر عظيم، حين يوسع ربنا عليك وتفرج الكربة كيف يكون هذا الأمر عند الله! أمر عظيم تنال به معونة الله، (وَاللَّهِ لا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وتَصْدُقُ الحَدِيثَ، وتَحْمِلُ الكَلَّ، وتَقْرِي الضَّيْفَ، وتُعِينُ على نَوَائِبِ الحَقِّ).

واليوم الناس في نائبة من نوائب الدهر، نسأل الله أن يجعلنا ممن اغتنم هذه الفرصة فأطعم ونفع المسلمين، يا رب اجعلنا من أولئك القوم يا رب العالمين.

الحض على إطعام الطعام، أنت أو كل من يمكن أن تحضه على إطعام الطعام لك في ذلك أجر، وخاصة لو كان الناس في كربات التي منها التيتم، فاليتم على أهله كربة عظيمة، فإطعام أولئك القوم شيء عظيم خصوصًا لو كان من قرابتك فنبدأ بتحسس قرابتنا أولًا وأهل الحاجة القريبين منا، ثم نتجه للأبعد والأبعد، وننفع المسلمين ونكون في ذلك كله طالبين أن يطعمنا رب العالمين من جنات النعيم، وأن يقبل الله منا العمل، وأن يقبل منا السعي في مثل هذه الأعمال العظيمة، يا رب تقبل منا أجمعين.

نقرأ الحديث (١٣٥) وله نفس الدلالة ..

١٣٥- حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ ابن عَبْدِ الْوَهَّابِ قَالَ: حَدَّثَنِي عَبْدُ الْعَزِيزِ ابن أَبِي حَازِمٍ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي قَالَ: سَمِعْتُ سَهْلَ ابن سَعْدٍ، عَنِ النَّبِيِّ صلّى الله عليه وسلّم قَالَ: (أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا) وَقَالَ بِإِصْبَعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى.

فِقهُ الحديث:

١) انظر شرح الحديث رقم/١٣٣.

هذا قد مر نقاشه الحمد لله.

---

(١) حسّنه الألباني.

١٣٦- حَدَّثَنَا مُوسَى، قَالَ: حَدَّثَنَا الْعَلاَءُ ابن خَالِدِ ابن وَرْدَانَ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ ابن حَفْصٍ: (أَنَّ عَبْدَ اللهِ كَانَ لاَ يَأْكُلُ طَعَامًا إِلَّا وَعَلَى خِوَانِهِ يَتِيمٌ).

فِقهُ الحديث:

١) انظر شرح الحديثين رقم/ ١٣٣، ١٣٤.

وهذا أشرنا إليه سابقًا، ويقصد بعبد الله هنا: ابن عمر.

٧٦- بَابُ خَيْرُ بَيْتٍ بَيْتٌ فِيهِ يَتِيمٌ يُحْسَنُ إِلَيْهِ

١٣٧- حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ ابن عُثْمَانَ، قَالَ: أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللهِ، قَالَ: أَخْبَرَنَا سَعِيدُ ابن أَبِي أَيُّوبَ، عَنْ يَحْيَى ابن أَبِي سُلَيْمَانَ، عَنِ ابْنِ أَبِي عَتَّابٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلّى الله عليه وسلّم: (خَيْرُ بَيْتٍ فِي الْمُسْلِمِينَ بَيْتٌ فِيهِ يَتِيمٌ يُحْسَنُ إِلَيْهِ، وَشَرُّ بَيْتٍ فِي الْمُسْلِمِينَ بَيْتٌ فِيهِ يَتِيمٌ يُسَاءُ إِلَيْهِ، أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ كَهَاتَيْنِ) يُشِيرُ بِإِصْبَعَيْهِ.

فِقهُ الحديث:

١) المعيار الحقيقي لكون المنزل خير المنازل أو شرها هو الإحسان فيه إلى الأيتام من عدمه.

هذا لمن ابتلي بيتيم في بيته وأصبح تحت كفالته مثل أن يكون للمرأة زوج وبيت وأولاد ثم يموت والدهم فتعود المرأة بأبنائها الأيتام إلى بيت والدها ويكون فيه الوالد والوالدة والإخوة والأخوات، فقد يتعرض لهؤلاء الأيتام شيء من التضييق عليهم أو على والدتهم لأجل كونهم يشاركونهم في أموالهم أو شيء من هذا الذي يقبحه الشيطان في نفوس الناس فيخوفهم من الجوع ويخوفهم أن هذا اليتيم سيكون ثقلًا عليهم.

بيّن الرسول -صلّى الله عليه وسلّم- في هذا الحديث، وإن كان فيه ضعف لكن بمجموع الأحاديث في هذا المعنى تقوي هذا الحديث، فيقول -صلّى الله عليه وسلّم-: (خَيْرُ بَيْتٍ فِي الْمُسْلِمِينَ بَيْتٌ فِيهِ يَتِيمٌ يُحْسَنُ إِلَيْهِ) - كما قال صاحب الشرح هذا-:

المعيار الحقيقي لكون المنزل خير المنازل أو شرها.

على حسب مراعاة حق الله فيها ومن أعظم حقوق الله اليتيم الذي يحسن إليه، وسيتبين معنا أن الإحسان ليس معناه أن نسيره على هواه لكن نبذل في إكرامه وتربيته والإحسان إليه ما نستطيع، فهذا خير البيوت، في مقابل أن شر البيوت بيت فيه يتيم يُساء إليه، فالإساءة إلى اليتيم خسّة لا تناسب المؤمن، المؤمن يكرم المؤمنين ويكرم الضعفاء منهم أكثر من غيرهم؛ لأن الأقوياء يستطيعون أن يستخرجوا حقوقهم وعندهم من يستخرج لهم حقوقهم، لكن الضعفاء المنكسرين عندما يربّون وهم مهانين، هذا الأمر يؤثر عليهم في الزمن الطويل من حياتهم ويصعب عليهم ممارسة الحياة بعد عظيم الإهانات غير أنه ممكن يحصل حالات من الهرب أو من قتل النفس حين يجد نفسه في هذه الحالة شديدة من الإهانة.

اللهم اكفنا شر أنفسنا واكفنا شر إهانة المسلمين، بقصد أو بغير قصد، وخاصة الأيتام منهم، الله يغفر لنا أي تقصير في هذا الباب، سواء كان في أيتامنا أو أيتام غيرنا، رب اغفر لنا وسددنا واجعلنا مع كل المسلمين ممن يكرم الأبناء ويحترمهم، وخاصة الضعفاء منهم -اللهم آمين-.

٧٧- بَابُ كُنَّ لِلْيَتِيمِ كَالأَبِ الرَّحِيمِ

١٣٨- حَدَّثَنَا عَمْرُو ابن عَبَّاسٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ، قَالَ: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ قَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ ابن أَبْزَى قَالَ: قَالَ دَاوُدُ: (كُنَّ لِلْيَتِيمِ كَالأَبِ الرَّحِيمِ، وَاعْلَمْ أَنَّكَ كَمَا تَزْرَعُ كَذَلِكَ تَحْصُدُ، مَا أَقْبَحَ الْفَقْرَ بَعْدَ الْغِنَى! وَأَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ، أَوْ أَقْبَحُ مِنْ ذَلِكَ، الضَّلاَلَةُ بَعْدَ الْهُدَى، وَإِذَا وَعَدْتَ صَاحِبَكَ فَأَنْجِزْ لَهُ مَا وَعَدْتَهُ، فَإِنْ لاَ تَفْعَلْ يُورِثُ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ، وَتَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنْ صَاحِبٍ إِنْ ذَكَرْتَ لَمْ يُعِنْكَ، وَإِنْ نَسِيتَ لَمْ يُذَكِّرْكَ).

شرحُ الكلمات:

- إن ذكرتَ: أي: ذكرت له أمرًا.
- إن نسيت: أي: إن نسيتَ أمرًا يخصُّك.
- لم يذكرّك: من التذكير، فيفوت عليك ذلك الأمر.

فِقهُ الأثر:

١) الحث على كفالة اليتيم.

٢) بيان شدة الفقر بعد الغنى وذم الضلال بعد الهدى.

٣) الحث على إيفاء العهد وبيان ضرر عدم إيفائه.

٤) التحذير من القرين السيئ.

هذا الأثر فيه إشارة إلى الطريقة التي نتعامل فيها مع اليتيم، وهي (كُنَّ لِلْيَتِيمِ كَالابِ الرَّحِيمِ)، والأب الرحيم سيكون منه تعامل مع اليتيم كل يوم بما يناسبه، فاليوم الذي يخطئ فيه سيكون الأب الرحيم موجهًا وناصحًا، واليوم الذي يصيب فيه سيكون الأب الرحيم مشجعًا وشاكرًا، يوم سيكون الأب الرحيم مشيرًا بآرائه، مناقشًا لهذا اليتيم، ويوم سيكون معلمًا موجهًا، وهكذا الأب الرحيم يهمه أن يكون ابنه مستقيمًا في تفكيره وشأنه كله، فليس المقصود أن يطعمه ويكسوه، بل من المهم أن يربيه ويرشده؛ ولذلك الرعاية لليتيم والكفالة له تحتاج إلى مال، نعم! وهذا أضيق معنى للكفالة لكنها تحتاج إلى جهد تربوي، فهذا الأثر يبين هذا الأمر، كن لليتيم كالأب الرحيم الذي يربي، وليزيد هذا التنبيه قال: (وَاعْلَمْ أَنَّكَ كَمَا تَزْرَعُ كَذَلِكَ تَحْصُدُ)، يعني أن هذا الذي تفعله مع اليتيم لن يضيع عند رب العالمين، ستحصده في الدنيا وفي الآخرة، وأنت لا تعلم هل أبنائك يكونون في كفالتك، فتمتد بك الحياة وتربيهم أو لا يكونون، فتموت وتتركهم أيتامًا، وأنت كما تزرع كذلك تحصد، وإصلاح هذا اليتيم سيكون أثره صلاحًا حتى على ذريتك.

هذا الأثر من المهم جدًا الوقوف عنده والتأمل فيه لما فيه من تفاصيل أخرى نافعة ومفيدة يحسن الاستطراد في مناقشتها.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

فهرس الجزء الخامس

اللقاء السابع والثلاثون ١

٧١- بَابُ الْكَرَمِ ٢

اللقاء الثامن والثلاثون ٨

اللقاء التاسع والثلاثون ١٥

اللقاء الأربعون ٢١

٧٢- بَابُ الإِحْسَانِ إِلَى الْبَرِّ وَالْفَاجِرِ ٢٥

اللقاء الواحد والأربعون ٣٠

٧٣- بَابُ فَضْلِ مَنْ يَعُولُ يَتِيمًا ٣١

٧٤- بَابُ فَضْلِ مَنْ يَعُولُ يَتِيمًا لَهُ ٣٥

٧٥- بَابُ فَضْلِ مَنْ يَعُولُ يَتِيمًا مِنْ أَبَوَيْهِ ٣٦

اللقاء الثاني والأربعون ٣٧

٧٦- بَابُ خَيْرُ بَيْتٍ بَيْتٌ فِيهِ يَتِيمٌ يُحْسَنُ إِلَيْهِ ٤٢

٧٧- بَابُ كُنَّ لِلْيَتِيمِ كَالأَبِ الرَّحِيمِ ٤٣